جان بابير

الأوتاد

رواية

www.amude.com

مراجعة وتقديم
الشاعر أحمد عبد الكريم ونوس

E-Pirtûk
www.kurdme.com
www.all-kurd.com
www.kurdefrin.com

صدر للمؤلف:

- شطحات في الجحيم (شعر) 1998
GEWRIYA HELBSTÊ ZA- (شعر) 2001

رواية الأوتاد
المؤلف: جان بابير

الطبعة الأولى- 2002
عدد النسخ 1000

تصميم ولوحة الغلاف: للفنان منير شيخي
إصدار خاص – بيروت.

الاخراج الفني للطبعة الالكترونية
سيروان حجي بركو

من منشورات مركز عامودا للثقافة الكردية (**16**)

www.amude.com
info@amude.com

09.12.2002

حقوق النشر محفوظة للمؤلف و موقع عامودا

الإهداء

ليْ أنا
الذي خرجت من ذاتي
إليْ...

جان

مقدمة

حين تتوه الجهات الأربع من البوصلة، وكذلك الجهات الأصلية الأخرى.. وتنطبق الأبعاد، فلا وراء ولا أمام ولا فوق ولا تحت.. وتأتي الدوخةُ، فلا أفق يسند البصر، ولا قوة تحمل الجسد.. أتوجه إليكَ، ألوذ بشموخكَ، أتمسّكُ بحفنةٍ من طهارةِ ترابكَ، أيها المجيد أكثر من أي مجد أيها العظيم فوق كل عظمة، وأحتمي بك يا وطني..

* * *

الأوتاد عمل أدبي أعرض من الرواية، وأعلى من القصيدة، إنه مختبر للروح والكلمة، وهيكل منذور للوطن، ومشرحة لنا ... من منّا الوفيّ، ومن الأكثر وفاءً؟!...

الروح التي تختزن البروق في داخلها للحظة الطوفان، ولا يبدو على وجهها إلا جليد الخيبة .. كأنك تعود إلى صمت صدر أمكَ الحنون، ونطقه دون أي بغام، والأسطول كله خلفك، ينهزم، محطم الصواري، تعود.. لتتعلم اللعب بالحلمة الدافئة مرة أخرى، وتتقن الرضاعة بشفتيك من جديد، فإنْ أفلتَّ صدر أمك ثانيةٍ، يسيل الحليب على عينيك ووجهك، نهراً من دمٍ أصفر كالقبح.. يسقط وقتٌ كالراية المحطمة في أتون الخيانة..

الوطن.. الوطن، هذا الذي من جهاتٍ أربع، ومن أصولِ أربعةٍ يتشكل منها لبنةٌ لبنة، تراها، نفسها تنغرز عميقاً في جسده كالأوتاد، نقيّده إليها بأيدينا، ونترك عقتَه مهدورة تحت أنفاس الاغتصاب النتنة..

* * *

حبيبتي أيتها المقيدة من جهاتك الأربعْ، المقطّعة الأوصال رُبعاً رُبعاً، من الماء والتراب، إلى الهواء والنار، طهارتك أكبر من الدنس وعقتك فوق الاغتصاب.. لأنّكِ ما زلتِ العاشقة الأوفى، وما زلتِ المعشوقة التي يوقد حبيبها لها شموع النذور..

كردستان.. أيتها الحبيبة، الصبية التي بلون ألباب الجوز، وثلج آرارات، حيث تلقين رأسك الشامخ على سفوحه فيسيل شعرك انهاراً أكثر نقاءً من الخصب، وتربطين شرائطك الخضر على قمم طوروس، حيث تنفخ فيها رياحٌ بحرية تدّفأت على زاويةٍ زرقاء من المتوسط، فرفرفت حانية لطيفة الظل على المدى، لتداعب بظلها الرهيف خصر زغروس الأملود..

* * *

الأوتاد: ملحمة الحب والثورة، القهر والأمل.. ملحمة الوطن المشظّى إلى أبعاده الأربعة، في بعدٍ خامس هو الزمن.

وبُعدٍ سادس، بل أول وأخير، هو الإنسان، المتهاون أو الحازم، العاشق المتردد، المغصوب، والغاصب معاً!...

وجان بابير، الراوي هو البطل الرابع أو السابع في الرواية جان بابير الذي لا ينتمي حقيقةً لاسمه ينحدر من سلالة الشعر ويكتبه بلغتين الكردية والعربية، وهو الآن يحاول أن يثبت أصالته في أرومة » الرواية «

يكتب روايته هو، وقصة مخاضه الشخصي، لأن له نسباً آخر يسميه بشكلٍ أصيل، غصناً حقيقياً في شجرة الثورة، وهو يحاول أن ينقل إلينا صورة» معايشته « ومشاركته المريرة، لتفتّح تلك الشجرة وازدهارها، ومن ثم ذبولها.. والآن، محاولة قيامتها من جديد، ولكن بطريقة مختلفة..

لقد نجح جان في صياغاته الشعرية، وهو هنا يصوغ رواية، فهل نستطيع أن نحكم بأنه نجح في هذا أيضاً؟

أحياناً، تطغى الشاعرية، على النص، فنقع معه في مصيدة القصيدة، وأحياناً أخرى، ينخفض التوتر الشاعري ملامساً ضفاف » الحكاية« دون أن يضيع منه كرادٍ وشاعر، أو يفلت منا » كقراء« ذلك الخيط الشعري الواضح تماماً والذي ينظم الفصول والكلمات في هذا العمل، الذي

يبدو وكأنه «نص شاعري» عن أحداث وقعت بالفعل هناك، حدثت للكاتب نفسه، كما حدثت معنا جميعاً..

تخليص الوطن، نبوءة حاولناها جميعاً، فللجميع وطن والجميع حاول أن يخلصه ولكن بطرائق مختلفة، إنما امتياز الكاتب، أنه بعد أن حاول تخليصه بالدم والنار وبالتضحية الشخصية، عاد ليحاول تعميده بالقصيدةِ والنص..

لم ييأس- فما زال لك أيها الوطن المربع الأبعاد مشروعية القيامة وسأستمر بدفع الأمل ضد صفر اليأس الذي وصل إليه بعض الناس-

ليست تلك العبارة خلاصة وحيدة يمكننا استشفافها في عمل الشاعر- والكاتب الروائي الآن- جان بابير..

بل إننا مدفوعون تماماً، بقوة اللغة والحدث، لاستنتاجات أخرى، أشّد أو أقل وضوحاً، لكنها ليست – أبداً- أقل إيلاماً..

وبالنسبة لي- منذ أن طلب إليَّ-مني صديقي جان كتابة هذه المقدمة- لم أنو إطلاقاً أن أعرّيْ نص عمله أبداً، فهذه طريقة في الرؤية تتسم بقلّة الحياء.. أو على الأقل بالمجون، أن تعرّي كائناً على هذا القدر من طهارة المعاناة.. معاناة الوجود كما هو، بكل تشكلاته، أنت إذاً تريد فقط أن تحرق براقع الاحتشام!..

كما أنني لا أريد أن أنظر إلى أعضاء هذا العمل- مكوناته الرئيسية كما درج الدارسون، فذلك «نقد المشرحة» وأنا لا أرغب أن أخرج من هذه الرؤية ويدي ملطّخة بالدماء!.

لنترك الكلمات إذاً تقول ما تريد، وتفعل ما تشاء، لنترك جان و كردستان يفعلان بنا، كقراء، ما يشاءان ولنجرّب- مرّة- أن نرى انفعالنا الشخصي المحض، يحكم... دون الرجوع إلى فجاجة المناهج، وبياس «الإيديولوجيات» الموضوعة بعيداً عن الأحاسيس...

لنمشي إذاً مع »جان – شاهو« إلى » قبره « الخيالي، أو قيامته الوطنية، في تشكّلها الأخير...

أحمدع. ونوس

-1-

تنهيدة التراب

[0]

كل شيءٍ يصخب في هذه الليلة الحزينة، صفير الهواء يُسمع مع هطول المطر... قَصَف الرعد مرات متتالية، أشتد نباح الكلاب، البرق يرسم سيوفاً من نار في السماء، تدخل شهبها إلى قتامة الحجرة الكئيبة، تأسر ضوؤها لحظات، ثم تتلاشى الخطوط الحمراء في عتمة الليل، يتوالى هذا الإيقاع رتيباً.

النار تشع في المدفأة، النسوة يتحلّقن حولها يغزلن الصوف، يأخذ شاهو مكانه بينهنَّ مع صبي آخر من أترابه، يحتمي بأمه، الحجرة مسكونة بالقصص والأنفاس، الوقت يعصر الكلمات في قبضته ويخفي المجهول المقبل، أحشاء الحجرة تمتص الحكايات التي تطلقها ألسنة النسوة، راحت الوجوه تحاصره، خاوية ومقيتة كعواء الكلاب الذي يصدم نفسه الصغيرة، يرتجف، يشعر برغبة قوية لا تقاوم بالفرار من هذا الصخب، الذي يغتال طمأنينته...

الليل يرتل طقوسه على روح الزمن، ذبالة القنديل البترولي تغصُّ بأنفاسها صابغة أحد جوانب الزجاج بهبابها، سواداً قاتماً.

كانت النسوة قد سردن بضع حكايات عن الحب والثأر، إلى أن بدأت »ألو« تسرد قصة دلال[1]... وهي تتقمص شخصية الحبيبة »عدول« عندما علمت بموت دلالها »دوريش« بحثت عنه في البراري حتى وجدته ووضعت رأسه على ركبتها وناحت عليه...

حبيبي: أيها المهر المحمم في براري الفجر ياطائر الروح الأخضر.

زاد كل هذا مع كلمات الأغنية عليه وعلى جدران الغرفة الباردة غموضاً، أستسلم لإيقاع الرعب، في هذه الليلة الشتوية الطويلة وقال في نفسه بضراعة وخوف:

- آه لو كنت قوياً وشجاعاً مثل دلال لما خفت من الليل والرعد، ولكن لِمَ مات دلال؟!..

منذ أن بدأت آلو تسرد الفتاة التي أوثقوها، أصغى شاهو بكل حواسه وجعل من أذنيه نافذتين تلتقطان كل كلمة تقولها:

- الفتاة أحبت شاباً غريباً رفضه أهلها، وأجبروها على الاقتران بأحد أقربائها، كانت عنيدة ومتشبثة بحبها الأول، ولم يستطع أن يدخل بها ثلاث ليالٍ متتالية، كانت تقاومه بأظافرها وأسنانها ولم تتل منها حبال القنب المبتلة بالماء والضرب، يئس أهل العريس من هذه الحالة وأن هم تركوها تعود إلى بيت ذويها.. فكأنما يستأصلون رجولة العريس بسكينٍ حادة.

تنهدت آلو وقالت: اهتدوا لفكرةٍ جهنمية بأن دقوا أربعة أوتاد وربطوا وثاقها بأطرافها الأربعة وأدخلوا عليها العريس العتيد بعد أن ربتوا على ظهره وشجعوه...

وكأنني أرى المشهد ماثلاً أمامي بكل تفاصيله الحسية، ورافق دخوله إلى المحراب الإلهي للفتاة المغلوبة على أمرها، وكأنما تصاحب طقوس وثنية بائدة، من زغاريد وتشجيع، صار ذئبُ لذته الوحشية ينشبُ براثنه في صفاء طهارتها، وكانت تغرق أكثر فأكثر في حمأة الدنس، من اغتصابٍ «شرعي» كان يلوث نقاء العشق الذي راح يطرق أذنيها بضجيج لهاث الوحش الرابض بقسوة على صدرها، وحلِمت أنها تغرق .. تغرق ميتة في أطباق اللاوعي، وتنغرز عميقاً في

[1] - اسم بطل الملحمة الشعبية

أحضان أمها الأرض هكذا أعمق فأعمق، وهذا الوحش الذي يفحُّ ناراً على وجهها وشواظاً من رائحةٍ شيطانية يبقى معلقاً في فراغ دماملة الموروثة..

- لا ليس هذا جسدي الذي ينمحق الآن تحت لعابك الذي يسيل كاوياً وجهي كالفضة المذابة، بكارة الجسد فانية، أما بكارة روحي فليست لك، ولتأخذكَ عاصفةُ دمائي المتدفقة نافورةً من غضب إلى نجاسةِ وحشيتك الشيطانية، فأنا أغوص عميقاً في رحم أمي هذه الأرض.. الأرض البريئة الخيّرة، كحلم من النضارة، أعود إليها بذرة طهارة كجوزة برية، لن أصرخ أيها الحيوان تحت سياط لهاثك، فقط سأنغرس هنا في التراب، بذرةً لم تخلع ثوبها إلا في قلب أمها المياه العظيمة، لتخترق السطح ثانية وتخرج شجرة تحبل بعناقيد الدم.

أخيراً، ذلك الذي لايمكن أن نقول عنه بأنه وحش لأن الوحوش تأنف من فعلته، خرج ذلك «الكائن» الذي له صورة إنسان معلناً «فحولته» بحزقة بيضاء عليها لطخ حمراء من دنس الإستلاب، وأشلاء الطهارة.. تنهدت آلو، وهمست:

-مسكينة

تلمس شاهو وجه أمه وبلهفةٍ سأل: وهل ماتت الفتاة؟

لم ترد عليه أمه، كرر سؤاله، نظرت في عينيه القلقتين وقالت:

لا يا ولدي لم تمت.

- والدماء من أين خرجت ولماذا لوح بقطعة قماش؟؟

ضحكت النسوة وقالت آلو وهي تهمُّ بالوقوف موجهة كلامها لشاهو:

- ستكبر وتعرف ذلك بنفسك

ومدت يدها إلى عضوه الصغير، سيعلّمك هذا.

خجل شاهو وأنكمش في مكانه.

تلفلفن جيداً بثيابهن عائدات إلى بيوتهن:

- تصبحن على خير

ردت أمه وأنتنَّ بخير

- » هذه الليلة باردة جداً« قالت وهي واقفةٌ بالباب واصطحبت شاهو إلى فراشه.

اللحظة الخطرة تتثاءب وتلتوي داخلةً إلى جحرها، لتلحق بها لحظةٍ أخرى، وتمضي اللحظات غير آبهة بعينيّ شاهو المذعورتين، تحت اللحاف، هدأ المطر في الخارج، إحساسه ثقيل، قاتم في الداخل وكأن جدران الغرفة تطبق عليه وتقطع أنفاسه، شعورٌ خفيٌ قاده إلى النوم مرغماً، مع أن رأسه امتلأتْ بالوساوس والأفكار، امتدت الأصابع الخشنة إلى نعومة أحلامه، شاهد في حلمه (وتد... اثنان....) والفتاة المربوطة إليها، خرجت منها الدماء على شكل نافورة متدفقة نحوه صرخ بكل صوته:

- دم... دم.. دم.. أمي الدم في الغرفة، في الفراش في الوسادة، أختي تغرق في الدماء وصل دم أختي إلى ثيابي... حلقي.. عينيَّ.. الدم في دمي....!

استيقظت أمه هلعة على صوته، فركضتْ نحو فراشه.

- ماذا حدث؟ ماذا حدث؟ يا ولدي.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسملت وقرأت الفاتحة بخشوع، أرتجف في حضن أمه كعصفورٍ مذعور في قبضةٍ خشنة، جلبت أخته الماء وسقته.

بسم الله.. بسم الله، اختلط صوته بصوت مؤذن الجامع، أجفل على صوته وصمَّ أذنيه كي لا يسمع أيقظ بصراخه «حداتو[2]» النائمة منذ ثلاثة آلاف عام ومقبرتها والجيران وترافدت تلك الجراح تدفع أمامها (مزوبوتاميا) بأكملها إلى الدم والخراب وزلزلت المنطقة كلها على ضفاف دم وفاضت اللزوجة تحمل رائحة الموت.

[2] - حداتو: قرية شيران.

في الصباح أستقبلهم ضبابٌ كثيف مع نسماتٍ باردة وتوجهوا إلى الشيخ ليعمل لشاهو »حجاباً« كي لا تعاوده الكوابيس.

[1]

تنتصب الجدران أمامه بصمت، وتتشح بالسواد كلوحةٍ مدرسية عبث بها طبشور النزلاء، أسماءهم ذكرياتهم هواجسهم، كأنهم الآن فقط قد غادروا.. يجول بنظره بين موجودات المكان وأخذ يتابع الجدران مطعوناً بحزنٍ عميق، مغرقاً الآن، كما في كل الفراغ النزق، الذي يشاكسه مسامات جسده وأنفاس حياته.

تدلّت يداه وكان ينتقض في داخله، كأنَّ قضيباً حامياً يغوص في أعماق جراح الروح، المفتوحة على وسعها.

كل شخص هنا له عالمه الخاص وجسده يحمل قيحه الشخصي، مع حقائق عارية جداً من الداخل، فهو منزوٍ في داخله، وفي ركنه المعتاد منفرداً بنفسه حتى في هذا المكان، كما في كل الأمكنة الأخرى...

تحرر شاهو قليلاً من الألم الذي أنتابه، وضع كفيه المتشابكتين فوق ركبتيه المنحنيتين، واتكأ بجبهته عليهما.

طير الذكريات يمد جنحيه، ويبتعد عنه لا يأبه بالحواجز الزمنية والجغرافية يحاول الهروب من تحت مخلب التاريخ، يجوب البراري على صهوةٍ من الألم، جراحه ما زالت ندية ترزح مكبّلة بنزيف الدم والأوجاع، أحياناً تنتابه الحمى والهذيان، أمه تناوله كأس الماء، النبع الذي شرب منه في »سيدار[3]«، الغارات الجوية القذائف، أزيز الرصاص «أفين» الطلقات التي أصابت كتفه وساقه، المدرسة، القرية، الرفاق، السلاح، الثلج انتابته جميع المشاعر التي تعكسها هذه المشاهد.. أشواكٌ تخزُّ في أشلائه في هذيانه يفرك أذن المشاعية التي تعتّقت البشرية في جرارها.

يمسك تلابيب الليل، ليسأل عن الفجر المختفي خلفهُ؟ وهو في يقين أن الأسمال البالية لا تستر عري الصباح، اعد لديه سوط الذاكرة مع مهماز النسيان، تنعسُ عظامه في شبق الليل بتأوهات العوانس ولولا قدوم السجان مع حساء العدس وشتائمه (قاخ هيشك لر[4]) فالظلام لا ينزع رداءه، وما عُرف الليل من النهار، ارتعشت شفتاه أكثر.... أفاع من الغبار تصعد نحو السماء، أقترب من النجوم يحسّ أنفاسها الدافئة في صدره، يرى السماء عارية في التجاعيد الحرفية للنجوم.

عاد إلى المشاعية شدها من أذنيها، قبر ينبتُ فوق قبر، تتكدسُ أسواق النخاسة بنخاع المراحل.

باغتته هذه الحالة عندما تنحى العقل الحارس على بوابة اللاشعور هبط هرَم اللاوعي، عاد ثانية إلى المكان بينما العرق ينساح منه، أنفاسه محمومة وبطيئة بعض الشيء، زاغت في رأسه المشاهد.. الرفاق... الطفولة... أفين.. لفتهما غمامةٌ كبيرة كثيفة وأطبقت على روحيهما في صيرورة الزمن الحادّة.

رفع جبهته وأمعن النظر في الباب الحديدي الثقيل، والنافذة المصلوبة بأربع قضبان.. أسند رأسه إلى الجدار، الجدار الذي يفصله عن أفين عن الحرية والجبال خاطب نفسه:

- هذا المكان يبعثر عمرك هباءً

حبل الأسئلة يلتف حول عنقه، سلاحه الوحيد أمام لوحة أصناف التعذيب السوريالية، إيمانه وثقته بنفسه، أوقد قنديل الإرادة في دهليز الروح.

الضوء الأصفر الباهت، يخرق أحشاء الظلام، يرتسم ظله على الجدار ولو كان ثمة ضوء أكثر، لظهرت جبهته العريضة بلون القمح، عيناه البنيتان، يستقر فيهما البريق والذكاء معاً وأنفه الأفطس الذي يُنسجم مع عينيه المتورمتين، فارع الطول يمشي منحنياً لكثرة ماعتاد حمل المخازن المليئة بالطلقات فتراتٍ طويلة على خاصرته، رفاقه في الثورة كانوا ينادونه بالصيني

[3] - سيدار : قرية جبلية في جنوب كردستان
[4] - قفوا يا حمير.

بشعره الأسود السبط، وشاربه الحليق غالباً، كانت الظروف الصعبة التي مرّ بها تضطره أحياناً إلى إهمال مظهره الخارجي، الظروف التي كان صدره العريض وحده خليقاً بتحملها.

دنا من هتاو وبطابعه الحماسي قال:

هتاو... هتاو قم يا صاحبي، مسّد هتاو عينيه ونظر من فوقه إلى شاهو وابتسامةٌ تعلو شفتيه.

- ماذا دهاك؟ هل جاء (الكارديان) لنقول ثانية (المارش)؟

جلس قربه وثنى ركبته اليسرى، تحسس جرح كتفه، شد أسنانه على شفته السفلى بقوة.

خرجت من داخله تنهدة ذبيحة أسند رأسه على كتف هتاو انتابته حمى شديدة، فتبدلت ملامحه، بان التأثير جلياً عليه.

أرخى رأسه وتمتمَ..

- لم أعد أطيق .. لم أعد أطيق! كل هذا، لو لم أستهلك الرمانتين، ولولا الجراح التي أعطبت يدي للما شاهدتني قابعاً هنا في هذه الزنزانة الضيقة.

كان يشعر بحنان نحو هتاو ربما لأنّ الأخير يكبره بعدّة سنوات أو بسبب الروح الرفاقية التي كانت تجمعهما بين صفوف الأنصار، والخصوصيات المشتركة الكثيرة.

- خاطبه هتاو أنت تنأى بأفكارك عني –يا شاهو- دع نهر الحياة يأخذ مجراه، ماذا يمكن للضحية أن تفعل وهي تحت السكين؟!..

- تحتج

وكأن هذه الكلمة أعجبته دون سواها، أدخل أصابعه في شعره ورفع الخصلات من فوق جبهته ردد كلمته نعم أن تحتج.

قطب جبينه وهو يحدق بالسقف وخيوط من نسيج العناكب التي كانت تعقد قرانها في الزوايا.

- نحن العوبة بيد القدر، عبثاً نحاول الهروب. مازحه هتاو قائلاً:

- الهروب من ماذا؟

القدر ليس تمشيطاً عسكرياً لكي تختبئ منه، ولا غارة جوية، كفاك تمرداً، تتمرد حتى على نفسك؟!.

جاءته رعشةٌ قوية فقال بانفعال: يا لهذا القرف !!

- لا ترفع صوتك سيدخل الكارديان ويشبعنا ضرباً.

رفع رأسه بسخريةٍ

– لا أبه به فليفعل ما يشاء، الجسد يذوي ويذوب كل يوم، ولا يبقى شيء سوى أننا نعيش رغماً عنا.

خاطب رفيقه أو ربما ذاته، وهو في دخيلة نفسه يدق عتبة الأمل الضئيل بخطواتٍ نازفة ولا يصل مبتغاه، يتسكع في عتمة أحلامه المنذورة للذبح من حداتو إلى حدود أرمينيا.

همهم قائلاً؛ كلبٌ أنا سرقوا نباحهُ، سأصرخُ في وحدتي المزدحمة بصوتٍ لا صوت له!!

وبهدوء قال هتاو بتُ لا أفهمك في هذه الأيام.

- ولماذا تفهمني، وهل أنا معادلة كيميائية؟

- دعك من الفلسفة.

- كما تشاء لا أريد أن تنزعج أكثر لا زالت الحمى تعاودك بين الفينة والأخرى.

صمت وعض أكمام قميصه الذي بدا قاسياً بين أسنانه من العرق والدم، أنين موجع يحز قلبه بسكاكين، ويستنزف من قوته الكثير قلب الزمن له، فتزنّر بالقنابل، أراد أن يصرخ، صوته يضيع في شروخ جسده والجدران معاً، رغم هذا أحس بثقة وطمأنينة.

جوانحه تلتهب بأغنياتٍ ولوحاتٍ تدق في الذاكرة كالمسامير، تنقش نعشاً كالوشم على غضروف أرادته، يتثاءب الجرح في جسده، ينتفض يعانق هذيان الفكر، لحن البقاء الصدئ يئن في جراحه جرحٌ أسيوي عنيد لا يندمل.

أحس بمخاض هذا النزيف مُذ كان طفلاً يلهو مع أترابه قرب مقبرة حداتو يوم حملوا الأسود الحجرية من قريته على قاطرة ذات عجلات كثيرة.

وهو يسأل نفسه والآخرين، يكبر وتنمو في حقله الأسئلة وتتطاول عن اصوله «ومزوبوتاميا» هذا التاريخ الذي يحاول الهروب منه فيلاحقه كظله، بكل محطاته الأليمة وأنتفاضاته المجهضة.

خاطب هتاو: دعني وحدي

- أنت دائماً تفكر وحدك.

أستمر جالساً لبرهة، دون أن ينبس ببنت شفة، أنسحب إلى زاويته المعتادة.

كما تشاء.. قالها: هتاو

لم يرد عليه...

عاودته المسامير الأحياء والأموات يتصارعون في ذهنه، التاريخ الماضي البعيد يختلط مع الماضي القريب، والحاضر جثث، جرحى، أجزاء مبتورة، دخان قنابل، يتوزعون على القبور والمشافي، مقابر لا تملك أسماءً وعناوينً وليس لها مكان محدّد أمُّ تبحث بين الرسائل عن أخبار ابنها، حبيباتٍ يضطجعن الليل مع شظايا الذكريات، ها هو «حقي» الصغير يسأل عن أمه التي التحقت بالثوار، إنها الحرب يا شاهو قالها لا شيء أجمل من مصارحة الذات ونظر إلى ظل القضبان التي شكلت على الأرضية مربعات كبيرة، وصوت شاحنات يأتي من بعيد... شاحنات تذهب اتقطر وراءها التاريخ والطفولة والذكريات..

كثيرون غابوا في أتون هذه الحرب، كانوا معه في الخندق والعمليات، المشفى المحفور في عمق الجبل تحسباً من القصف اليومي، المطبخ الثوري وأرغفة الخبز التي يتصاعد منها الدخان.. اليوم دورك يا شاهو ستقوم بصنع الخبز والأكل سيكون فاصولياء. شاهو الآن يتذكر كل هذه الأشياء.

الصيف الشتاء الربيع.. الخريف، هذه الرباعية الموجودة في صيرورة الحياة، كنت ربيعاً يزهر يتدفق عنفواناً وشباباً والآن الخريف يداهمك بغتةً أسقط الآن تفقد من ركائزك الأربع اثنان.. أسقط.. لا لن أسقط.

يظهر له الجنرال الثلجي، السلام عليك أيها الوطن، أيها القاسي الحنون، أيها البارد والحارّ!!. يمد ذراعيه السماء بيضاء الأرض، الشجر كل شيء أتحد في لوحة بيضاء كالكفن، وصفير الهواء تلقين لدفن أشلاء أغنية دافئة.

يتذكر رفيقته زيلان، بتروا أصابعها العشر بعد أن احترقت في الثلج، وهذا خوفاً من تغلغل الغرغرينة، حرموها من نعمة كتابة القصائد.

زيلان طالبة الأدب العربي القادمة من حلب كانت تبكي بمرارة وتسأل بأي شيءٍ سأكتب وكيف سأمسك القلم؟!

تستند إلى شجرة البطم طالبة منك أن تدون بدلاً عنها مذكراتها.

- قصف مكثف في (بيت الشباب) وبعض الأحداث الهامة بالنسبة لها، مشاعرها، أحلامها التي دُفنت هناك، في الثلج والرماد.. رماد العمر.. ثلاثة جرحى وأربعة شهداء (هكاري) اشتباكات عنيفة منذ البارحة وحتى هذه الساعة وكمين يسقط فيه أحد عشر رفيقاً بينهم خمسة رفيقات.

وأنتَ تشمئز من كل هذا، وتشعر بإهانة كبرى تلحق هؤلاء الرفاق.

-نحن نعدّهم كما نعد التفاح، وننسى أنهم حيوات مليئة بالصخب والأحلام، يجب أن نغوص في ذاتهم لنتعرف بهم.

- إنني، أكره لغة الأخبار بحق الشهداء تنهدت زيلان، وقالت يا رفيق أنا أحاول أن أحصي عدد شهداء حملة الربيع، مرغماً بدافع التعاطف تكتب لها ما تريد.

حينذاك كنت جريحاً معها في المشفى، حملتك الممرضة الألمانية ميديا على ظهر البغل واسطة النقل الوحيدة في الجبال، كانت تسهر عليك كثيراً الجبس كان ملفوفاً على ساقك اليمنى حتى الورك.

لم يكن باستطاعتك قضاء حاجاتك، تجلب لك المبولة، علبة من الصفيح، وأنت تعلم أنها ستصدر صوتاً، تطلب منها أن تبقى خارجاً وهي بقامتها الهيفاء وشقرتها الضاربة إلى الحمرة، تهز برأسها وتقول (أولماذ هفال[5]) وأحياناً تمتزج مفرداتها التركية والألمانية والكردية وأنت تبتسم لذلك.

هو الآن في اللحظة المفتوحة على مصراعيها.

تعود إلى حفلة المعنويات في المشفى العسكري، كان الممثلون الجرحى وكنت بينهم في دور الطبيب وتحاول بدورك بتر ساق أحدهم بالمنشار، والرفاق والرفيقات من حولك يضحكون ويصفقون لإتقانك الدور، وتبتعد الذاكرة به هاهو طفلٌ صغير بوجهً أحمر يبتسم لنفسه.

كَارا- أرضروم- ديرسم- آرارات- مناطق من الوطن توزعت فيها أحلامهم وتبعثرت أشلاؤهم، البندقية التي عانقتها بعد أفين- يا عزيزتي ألثم فمكِ، أدللكِ أحملك على كتفي أسطّر بكِ حروف الثورة المضيئة بدل القلم الذي أهملته منذ زمن في غمار الحرب كان يخاطب البندقية وهو بعيدٌ عنها.

- لماذا قمت بخيانتي؟ ألم أحميك وأحضنك كل ليلة؟! لم أهملك لحظة، أحببتك مثل أفين، أما أفين.. أفين مخلصة أكثر منك، التحقت بالثورة، واختارت طريقي، صحا قليلاً لا لم تخونيني كان العطب في يدي ولم يكن فيكِ، المحرمات والتابو في حياتنا الثورية، جعلتنا ننظر إلى البعض كالغرباء، الإلتزام بالنضال جعلنا ننسى هواجس الحب، أو نتناساها، وهمّنا كان أن نكسب هذه الحرب، لم يكن ثمة متسع للاثنين معاً، شعرت أن أفين ستأخذني من اهتماماتي الوطنية، كنا نقمع في داخلنا مارد الحب.

تقول: الحب يحطم جوهر النضال، فليكن حبنا روحياً، بالطبع كنا نخدع أنفسنا وهي تردد على مسامعي تجارب كثيرة عرفتها عن كثب، ولا وجه للمقارنة بالثورات في البلدان الأخرى.

بين كل هذه الدماء كيف نتعاطى الحب؟ الموت كان يداهم شفاهنا، وتولد الطلقة من فم البندقية مرفوقةً بلزوجة حمراء، تستقر في الأجساد، عطشى تبحث عن الضحية في المقهى والجبل، الأزقة والنوم، رغم أنف المقدسات نتلثم بالروح، ومن حولنا يحترق (المازيا)[6] والشفق لايستطيع التنفس من الدخان، جراح تندمل وأخرى تفتح أفواهها، والدروب كانت جريحة بأقدامنا والموت ينتشر كالرياح، النزيف متواصل، وأي معنى حقيقي للبقاء، ويطلُّ الفراق برأسه من بين الجروح، المعركة متواصلة، سقط القمر، والغيث من العينين يهطل، الأيام تنشد لحنها الجنائزي وتندثر الوجوه من حولنا وتختفي.

اضطرم في كيانه نهر الذكريات، وهو يتقلب على جمرها، ما عاد للمستقبل حلم والحاضر أصفاد، فقط الماضي كان ينتصب أمامه، كالجدران ويعتقله بقيودً لا مرئية، ربما وجد شاهو في ذلك راحة نفسية، فهو يتلذذ بالعذاب!!.

قرية نائية في بلدته » كوباني « ضلت أعمدة الكهرباء الطريق إليها مثل كل قرى الشمال شمال التاريخ، لا تعرف من المدنية سوى روثها، وهي ترتفع حتى خصر التلة الأثري ببقايا أحجار قلعتها الأثرية، هذا المكان في يومٍ من الأيام كان حاضنة بشرية، وهي الآن ذرة رماد لا تعرفها كتب الجغرافيا، تحتضن أناساً ريفيين بسطاء، هذا المكان يعني لهم الشيء الكثير الأصالة والجذور. أرواح الأجداد الحائمة فوق المكان والذكريات المدفونة في..

[5] - لا يجوز يا رفيق. وهي جمع بين كلمتين كردية وتركية.
[6] - المازيا: البلوط.

الأرض منبسطة تمتد حتى أقدام البيوت الترابية، المخروطية الشكل بعضها له قبب مسطحة تتناثر بشكل عشوائي، وهذه الأراضي تشكل مربعات ومستطيلات خضراء وحمراء، حسب ما تقتضيه الطقوس الزراعية، أيام الربيع تنتقل قافلة الصبايا والنساء والأغاني والحمير والكلاب إلى المرتفعات الجنوبية لحلب الأغنام، بألوانهم الخضر والحمر، كأنهم في كرنفال أزياء، يهفهف »القفطان« طرباً لناي الراعي وهو يطل عليهم من عليائه.

شاهو في عيد اليوم، الخروج مع «البيريفان[7]» وبرفقة كلبه جومر، بين الفنية والأخرى كان ينهمك أمام نبتة «الكرنك» ينبش جذورها من الأرض الرطبة ليحصل على الكنز الثمين، يحاول انتزاعها ببعض الأعواد تارةً وبأظافره تارة أخرى.

أمه توبخه- اذهب إلى بركة الماء واغسل يديكَ.

آثار الوحل بادية على ركبتيه، يركض وراء جومر ليعود إلى القرية، شاهو كبقية أطفال القرى المنسية في أحضان التاريخ، يرتدون أسمالاً بالية، المخاط الأصفر يسيل من أنوفهم، يمارسون ألعاباً بريئة في المقبرة التي تحد القرية من الشرق.

الغميضة، «البوليس» والحرامية، ومصطفى يتباهى أمام شاهو والأخرين لأنه جلب هذه اللعبة من المدينة، يرتفع ضجيجهم وصخبهم، مصطفى يقول: شاهو لا تذهب إلى المقبرة الشمالية.

طريق ترابية تمتد كذيل أفعى تفصل بين المقبرتين

- هذه لأقربائنا لا تتبول هناك، حرام، لنلعب في مقبرة الكفار.

التي يعلو قبورها رمز الصليب، هذه المقبرة كانت بداية تفتق عقله الصغير، على الأسئلة الكبيرة.

- لماذا مستو يقول هذه للكفار؟

ألا تضمّ الجميع أرضٌ واحدة؟! يلعن في داخله مستو الذي ينزعج من هذا اللقب كثيراً.

- لا تقولوا مستو.. سماني أبي على اسم المرحوم شيخ مصطفى مصّرو، وهو من أولياء الله الصالحين، عبر مرةً نهر الفرات إلى جرابلس ومن ثم إلى حلب وعاد في نفس اليوم وهو لا يحتاج إلى جسر لأنه بقدرة قادر يطير أو يمشي على الماء ولايغرق.

- شاهو لا أصدق ذلك.

- أسأل أمك، وهل الشيخ نوحو يكذب؟

يهرب شاهو من الأستاذ ولغته إلى المقبرة، يبكي يخاطب قبر والده يمرغ رأسه بالتراب.

- لماذا لم تأخذني معك، قم أسمعني؟ يقول لي مستو أبن الأرملة، مستو وخلو يجلسان مع أبائهم على العشب والخبيز ويشربان البابونج وأنت لست معهم، أين أنت يـاأبي؟ بغيابك انقطّعت جذوري وانبترت أصولي.

عندما يضربني مستو تنادي أمه عليه »حرام لا تضربه أنت كبير ماذا تريد من هذا اليتيم؟.

سمعته يقول أن أمه قالت بأن أمي لا بد أن تتزوج، لماذا مت؟ كلمة اليتيم تلاحقني كاللعنة، لم أبكِ من الدم الذي سال من أنفي، ولا لعضات مستو على كتفي بقدر ما أبكي من كلمة اليتيم.

قم يا أبي. يرفع كفّيه الصغيرتين نحو السماء فتعرى التلة والقرية وشجرة التوت، في دمعه ولم يقم أباه، وستلازمه هذه العادة، يناجي الأموات ويزور المقابر خلسةً حتى في الليل البهيم...

تأتي الأيام رتيبةٍ، ما أن ينهي الصف الثالث، حتى تنتقل اسرته إلى «ديشته» للعمل في القطن، ولم يشعر بالغربة هناك، البيوت نفسها لكنها أكثر، وفرح أكثر لأنه أقترب من البلدة وكاد ينسى قريته الصغيرة، في لهوه وعبثه هناك.

[7] - البيريفان: الحلابات

[2]

الأشياء التي تسكن خلف عيني شاهو أكثر مما أمامهما، أطلالته دائمة إلى الكوة الأليمة، محاجره ترصد الشرخ العميق، تقاسم الفقر والحرمان فراش طفولته.

مات أبوه، ولم يكن قد أكمل ربيعه الثالث، ترتيبه الخامس والأخير بين أخوته، لا يتذكر شيئاً من ملامح الوالد سوى صورة (فوتوغرافية) قديمة تملؤها التجاعيد، مازالت أمه تحتفظ بها بين ثيابها في صندوق خشبي مزخرف.

كثيراً ما فاجأها وهي تذرف الدموع، فوق محتويات الصندوق.

قررت المدرسة القيام برحلة إلى نبع عين العروس، بعد قراءة الأسماء لم يظهر اسم شاهو في قائمة المشاركين، أستفسر المعلم وخاطبه بحدة (لماذا لا تشترك بالرحلة؟).

وقف «شاهو خجلاً رث الثياب».. طأطأ برأسه وحكَّ خلف أذنه وبعد برهة قصيرة خرجت حشرجة من حنجرته مع الدموع.

«لا أشتاز أنتَ ما يروح!».

ضحك الأستاذ وشده من أذنه، ثمَّ مسح إبهامه وسبابته بمنديل ورقي... وقال:

- قل لن أذهب...

وقف تلميذ آخر أكبر منه سناً وقال: نعم أستاذ، شاهو لا يعرف العربية ومن فوق كتفه قال: ومن سمح لك بالتكلم.

ذلك التلميذ هو مصطفى الذي أصبح طبيب أسنان في بلدة شاهو بعد أن أشترى شهادة »بكالوريا« من دولة مجاورة وتخرج من روسية...

أما شاهو فقد أجلسوه -ذلك اليوم- على الكرسي، رفعوا أقدامه، أشبعه المعلم ضرباً، لم يقل.. أنا لا أملك نفقة الرحلة، وقد أن طلبتُ ذلك من أمي.. ولم يكن معها أي نقود.

قال: فقط لا أحب الرحلات.

هو عنيد بطبعه، حينذاك كان يخجل من الفقر والعوز أما الآن فقد شيد مملكةً للفقر في رأسه وسن شرائعها وقوانينها المقبولة منه ومن أنداده!!.

صوته مشحون بالأسى وكانت الكلمات تتدفق على الذهن، كسيل عارم وتغمر عالم الفكر، تنزل متأبطة فلولك التي تتشبث بذيل الهزيمة.

من الحرمان يلجأ إلى الحرمان، يسكنه ضباب كثيف يغلف كوة الذاكرة والقلب.

تفجرت عيناه بالدموع، لا يعرف ماذا يزرع في حاكورة الروح، الدم، الحلم، الحب، ويحصد طفولته بمنجل خرافي..

يلملم ظلال الإيمان، يهرب من ظلال صليب النافذة، يبحث عن قصائد لم تسطّر بعد، يحاول الأضطجاع مع أحلامه الصدئة.

تستحيل سراباً، لبه مليئ بهموم صفراء كالقيح، جراحه أفاعٍ تفتح أشداقها في قيظ العمر والمكان!..

كان أصعب يوم في حياته آنذاك، يوم تخلى عن المدرسة في المرحلة المتوسطة، وعمل أجيراً في محلات الصناعة، وعندما كان يشاهد الطلبة بزيهم المدرسي يقارن بها ثيابه المصبوغة بالشحوم والزيوت، ويشعر بالقرف من ذاته لهذه المقارنة.

بعد أن هم بالحركة، وقف مبهوتاً وجامداً ونظر إلى هتاو بعينيه المتورمتين وشفتيه المشققتين.

بادره هتاو مشفقاً

- كفاك تعذيباً لنفسك

بصوت ناعم وأبتسامة هادئة قال: ليس لدي رغبة بالكلام، أريد أن أكون وحدي.

حرك هتاو حاجبيه بهدوء ثم نظر إليه.

ببرود: ومن طلب منك الكلام، أصبحت كهذه الجدران وأشار بيده ناحية «القاووش» الشمالي.

ونظر من فوق إلى هتاو... لقد أستطالت لحيته الشقراء، وأختفت آثار تلك الندبة، التي أحدثتها شظية في عملية »شمذينان« وكان يبدو بعينيه الزرقاوين وشعره أشبه بالممثل الذي أخذ دور السيد المسيح، في الفيلم الذي شاهده مدبلجاً إلى اللغة الكوردية وهكذا بدا له: أن المسيح بذاته في السجن ينتظر جلاديه، كان هتاو يقلد في حفلات السمر ذلك الممثل.

ويردد هذه الجملة كثيراً (**Erê seyda ku yekê şiqamek li min da Ez çi bikim rûye xwî dîn pêde[8])**

وتناقشا مرة أن هذا التسامح الزائد يولد لدى المرء الخنوع.

شاهو لم يتنازل عن رأيه لهتاو بخصوص هذا الكلام.

ما زال محدقاً فيه وهو يمضغ ألمه في غيبوبة.

بينما كان هتاو يعود بذاكرته إلى «شقلاوة» آمن بحب ميديا وببقائها إلى جانبه، لا أن ترحل دون سابق أنذار، وهو يسرح في أماكن لقاءات سابقة بخياله خارج أسوار السجن، لقد جعلها مزاراً مقدساً يقصدها للعبادة.

في هذا الشارع مشينا معاً.. وتحدثنا.. وهناك جلسنا...

ومن هذا الكشك أشترينا الصحف.. وأهديتها رواية.. وفي هولي ميديا شاهدنا عرض المسرحية..... معاً.

و.....

و.....

و.....

هو أسير ذكرياته، يحمل سر الضياع بين طيّات ضلوعه، ودارت في مخيلته صورة الهجرة المليونية، والتشرد من أيران إلى تركية، عقوداً من الخيبة، جرجر خطواته الحجرية إلى لامكان؟..

المحطة الأولى هي انتقالهم من قرية (هيران) إلى مدينة (هولير) لقاءهُ الأول مع ميديا- حلبجة- الإنتفاضة، نكسة أيلول، طوت في أكفانها والده، مذابح الأنفال أنزلت الستار- الأبدي- على شقيقه الأكبر.

- آه يا وطني كم تشبهني أنا نموذج مصغر منك وذاكرةٌ لك، أمي أين أنتِ؟! ماذا تفعلين؟! كيف هو خوشناو؟

أنا بحرٌ كل أنهر الحزن تصب في داخلي، آه يا أمي....

فجأة سأل شاهو وهو يقطع خيوط تأمله كيف تصبح الأصفاد ظلاً للمعاصي؟ فالثلج يدفع نصاعة لونه في وجه السواد ولا تنصاع براءته!!..

- يجب أن تُعرّى الحقيقة.

وعندما أتم عبارته قال وكأنما يحمل في أعماقه العجز.

- كنت أتمنى حدوث شيء فوق طاقتي، أقوى مني، ومن الهزيمة.

أمسكه هتاو من كتفه براحة يده محاولاً تشجيعه والشد من عزيمته ولم يكن ينتبه إلى أنه قد أمسك كتفه المصابة، وأنه كانت تؤلمه.

- لم تهزم يا رفيقي الهزيمة تكون في الداخل، في القلب، في الروح..

أحس بارتياح لهذا الكلام فاسترخى وكأنه عائدٌ من مهمةٍ صعبة بين الأنصار في الجبل.

- أجل الهزيمة تكون في النفس، نعم هي كذلك.

وقال لهتاو: كلماتك، تجعلني في حالة يقظة، أنت وأنا نتجرع مرارت الألم.

أبتسم هتاو أنت دائماً هكذا، كلامك يحمل أكثر من معنى، لماذا لا توضح كلامك.

- ماذا تقول؟

[8] - إذا لطمك أخوك على خدك الأيمن أدر له الأيسر.

- أنا وأنتَ بل الآلاف مثلنا في بقاع مختلفة من العالم، لا تقل ما شأني بالآخرين!!.

راقبه شاهو بقلق وقال: إنني أشعر بالصدمة كل يوم أكثر من الذي قبله، من كان يصدق أن عمر سينهار ويعترف بكل شيء، من يكون في درجته من المسؤولية يجب أن لا يعترف، ويتقبل الموت بشهية مفتوحة.

قال هتاو: هذا عين الصواب، إن مجموعتكم المتحركة بعد أن فقدت الإتصال بالمركز والرفاق، تعرضت لمخاطرٍ جمةٍ من الجوع والمسير الطويل في الثلج، كثيرٌ من الرفاق بترت أطرافهم ومنهم من مات لكنكم لم تستسلموا، هذه المجموعة كانت الأشهر واسمها كان يسبقها إلى كل الإيالات.

تابع هتاو بعد أن مد قدميه

- لكن ظروف السجن تختلف عن حياة الانصار في الخارج، حيث هناك الروح الجماعية ترفع المعنويات، وكل شخص من »الكريلا« يحمل سلاحه بيده.

- أجابه شاهو لا تقنعني بهذه المواعظ، إرادة الثوري يجب أن لا تلين أينما كان، كيف كان جورجي ديمتروف في محاكمته التاريخية.

- قال هتاو بسخرية.. وهل ستقارن عمر بجورجي والآخرين؟

- قال شاهو قانطاً: لاتذكر أمامي اسم ذلك الجبان.. كفى إنه جبان.

- أجابه هتاو : وهل أنا تحدثت عنه أم أنت.

- أنا، أنت.. كفى لا تزعجني أكثر مما تفعل بي.

والواقع أنه كان يتهرب من النقاش ويعود إلى تأملاته.

يا....

- أرجوك لا تحدثني أكثر.

هبَّ مذعوراً ومتضايقاً إلى ركنه وقال في داخله: خنزيرٌ أنتَ، كيف كنت تقف أمامنا وترفع صوتك، الإنضباط، الثورة، الإيمان، هل هذه مجرد كلمات؟.

وها أنت تنهار جرثومة لا تستحق العيش بين الأنصار، إلى الجحيم، إلى أحضان الفاشية يا عمر..

أسدل جفنيه، ورفع عن نافذة العقل الستائر، ينبش حضن الماضي، ويفرز جينات أيامه الوراثية.

الجسد يتشظى في مشهد ضبابي، يبحث عن انتمائه سراً وعلناً.

تعثر التاريخ، عدوت خلفه، بعد زرداشت وقبل المسيح، مرَّ على أشلائكَ ملوك، قلاع، حوافر، رماح، الاسكندر وكورش.

هذه الجغرافية لا تتسع لحلقة رأس أحلامه، كان هنا وعقله يحلق في الألف الثالثة قبل الميلاد، إنانا، ميثرا، مياه الحضارات الأولى.. مياه الإنسان..

يحس أن العالم مقفر مهجور، الحق أنه وجد في هذه الأفكار التي تراوده، إشارات استفهام إضافية تحاصره أكثر، وبأنفاسٍ متقطعة لا يخرج من دائرة الظلام الهلامية، يبحث عن أبعاده دون جدوى. يحاول الهرب من مخالب أنشبتها الذئاب الرمادية وهي تهدده بموسيقا الموت.

انقلبت عين أفكاره إلى الوراء، وراحت تنقّب في الماضي البعيد:

- قم من رقادك: صرخ بخاني إفرح بالأوتاد التي توثق أطراف «زين» الأربعة، تربطها مع الكون المادي الصغير وتحرمها من التحليق في مدى الروح، العاصفة لا تبرح جسدي، ترسل السهام إلى صدر «اهرمزدا»، بل إليّ، الدريئة الشاخصة أمام الكل، تطعنني في جهاتي الستة، لتخرج مدمّات في زمن.. الجهة السابعة الأعمق للروح.

تطلّع إلى هتاو الذي كان في سبات عميق، يتدثرُ »ببطانية« رمادية اللون، ثم نظر إلى قدميه الكبيرتين خارج البطانية.

وكأنه أحتجاج على وعاء الوجود، الذي لم يعد يتسع للكائن، فتخرج أيدينا من أحشائه أو رؤوسنا من عينيه، أو أقدامنا من بطنه المترهل.

غفى على حلمٍ جميل وهو يسير بجانب النهر والمطر يتساقط رذاذاً، حبات الندى كانت تنزل من أوراق الشجر، ظهر له نورٌ باهرٌ، وتوضحت ملامح ذلك النور وإذا بقوس قزح يخرج من صدر فتاة جميلة فاتنة إنها أفين.

لا ليست هي، أمعن النظر فيها جيداً وجدها بدون شفاه وعيون، كان وجهها مسطحاً، مستوياً تماماً، وبلا ملامح!!....

وأتسعت ساحة أحلامه لتشمل تلك الفتاة الموثوقة بالأوتاد، كانت قد مضت فترة طويلة، لم يشاهد ذلك الحلم، اجتاحته نافورة دماء من جديد تغمر الجبال والشوارع، بل ان السماء أيضاً كانت تمطر دم.. دم.. دم!!..

شاهد الاسكندر وهو يضاجع روكسان بعنف حيث أختلط دمها بالخمر، وفي ذات اللحظة هجم عشرة آلاف من جنوده تتقدمهم دماء ضحاياهم، الدم يصبغ كل شيء الثياب، الوجوه، السيوف، أقدام الخيل، عجلات العربات، القلوب، والصرخات أيضاً، كان كل شيء من دم.. دم كان في يومٍ ما نقيّاً.. يغمر ميديا وفارس.. وأنتصروا كجنس، وبذلك تم تطعيم العرق البشري بالخمر والدم لقد ذاب الآن ذلك الحلم عن مملكة أصحاب الوجوه الجميلة أولئك الذين وقفوا مرّة كالسد - بشعورهم الطويلة – أمام الريح القالعة والرحى التي تطحن الأناشيد الجبلية، وأحلام الفتيان ذوي الحلقات في آذانهم، أولئك الذين روضوا الجبال بمهارة ذكور الأيائل، للعشق والغناء والفرح..

لقد ذابوا الآن في نافورة الحقد والدم، طحنتهم العجلات المنقادة للقوة الغاشمة، وأُخرس صوت الغناء والحب ..

إن شعباً كاملاً، كان جميلاً ومرحاً بقوةٍ، قد تم ذبحه بأنصال الهمجية والإفتراس الغاشمة.

حتى أحلامه صارت تنام في أحضان الكوابيس، إلى حد الهوس كانت تراوده الكوابيس الممزوجة بالواقع، المعاش في حياته الشخصية إن نفسه في داخلها، تحمل – دون أن يريد كل ذلك الشريط الطويل من القهر، والقتل- خرجوا يتمنطقون أسلحتهم، وبندقيته تتدلى على كتفه بنشوة.

من يستطيع الآن أن يدفع المخلب عن عنق الأغاني..

أستمدوا من الجبال قسوتها، ومن الثلوج غضبها، ومن الزمهرير جموده، ومن الموت الضحك في وجه الموت، الجو بارد، الهواء صفعات حادة، وجهه مكفهر كالسحب، فالموت على رقاب الجميع، أنهم يحملون أكفانهم على راحاتهم، لا وقت للتفكير الأمطار غزيرة، توحّلُ الممرات الجبلية.

رغم هذا الطقس تحاول أن تكون خفيفاً، تتجرد من ثيابك، فهي تشكل حملاً إضافياً، والطرق الجبلية تمتد طلوعاً ونزولاً، التوى الطريق كثيراً، 0وأنت يمتد فكرك ويقف على المحطات، والمفارق.. تتذكر المعارك التي شاركت فيها...

مجموعتك المؤلفة من ثمانية وثلاثين رفيقةً ورفيقا، عندما عبرتم نهر «دجلة» ودخلتم حياة الأنصار، أنتَ تفتقدهم جميعاً كان ذلك نهاية ما سمّي »حرب الخليج« من الذي بقي من هؤلاء الرفاق؟!

كلهم رحلوا... إلا أربعة أنت واحدٌ منهم!!

رحلوا، دون داعٍ، لم يبق في المرج من يمشط له شعره، ولم يبق من يصرخ موّاله الصباحي في أذن الجبال، أنقطع صوت الناي والطنبور، أمام الطعنات الغاشمة، إن شعب الصبح ذاته قد أنمحى الآن، ولم يبق إلا الطيور ذات الأجنحةِ السود، التي تنقر بمناقيرها المعقوفةِ المدببة تلك العيون التي بقيت مفتوحة هناك على سفوح ميديا، تنظر نحو السماء بدهشةٍ وأستغراب، وربما

فقط.. بعض الدموع الحائرة مازالت تترجرج كأنَّ بها بعض الحياة في أطراف المآقي.. ومنها، ربما سيخرج الأبناء، ليقتفوا آثار قرقعة العجلات الغادرة لعربات الهمجية الغازية التي ما زالت ترحل من الأمس، إلى اليوم، وربما إلى الغد..

تلحق بها لتقتصَّ منها بعض دين الدم والأغاني الذبيحة.. وهاهم يخرجون متنكبين أسلحتهم حيث تمتد غابات المازية، والبطم والجبال تحتضن الوديان برفق، يعرفه أولاد الدموع والدم هؤلاء، ويمدون أذرعة قلوبهم لتحتضن ذلك الأفق المديد من سفح إلى سفح ومن قمة إلى أخرى..

هبطوا الوديان وتسلقوا مئات التلال، ما أن تصعد أحدها حتى تظن أن هذه هي نهاية الصعود فتظهر لك أخرى.. البرد يلدغ بقسوة كملايين الوخزات في الجسد والروح..

تطلع إلى نهر «**zap**» كأفعوان يلتف ويختفي على خاصرة الجبل، ويمد رأسه بعيداً حتى آخر البيوت المتناثرة من ، ديرلوك عبروا النهر وتسلقوا المنحدر نحو القمة، أنهمر المطر بغرازةٍ، الطقس بارد جداً تفحص مظهر المجموعة ومن فوق نظر إلى قمة «**`ar `la.**»

رؤوس قببها الأربعة تختفي بين السحب، وهي تهرول من فوقها، وكل واحد في المجموعة، يمشي بحذر وحرص شديدين، فإن أنزلقت حصاة من تحت القدم، فستنهي العملية كلها...

يجب تفادي الاصطدام قبل البدء بالعملية » أختبئتم في المغارة أتقاءً للبرد وكسباً لبعض الوقت والراحة، أشعلتم النار، أحتسيتم الشاي من ابريق لا لون له، علبة الدخان الوحيدة تدور من رفيق لآخر «..

كم تشتاق الآن إلى تلك اللفائف، أصغر قطعة ثياب تسرب إليها المطر، تدير ظهرك للنار تنفث دخانك الأزرق من سيجارةٍ تفضلها بل تحبها نحو الأشنيات النابتة على جدران الكهف »توزعتم للإصطياد، وفزتم بخنزير جبلي، أبتسامتك عريضة في هذا اليوم«.

وأنقطع نهار طويل ذو ظل أسود، قامت مجموعتان بالكشف والإستطلاع »رسمتم مجسماً صغيراً على التراب بيّنتم الغاية والأهداف من العملية« تم فرز المجموعات مجموعة لقطع الطريق المؤدي إلى الثكنة العسكرية، مجموعتان للهجوم كنت بينهم، أثنتان للتقوية، مجموعتان للدفاع مع ثلاثة بغال، ثلاثة أجهزة لاسلكي الدكتور «نومان» الممرضتان: هيفي وميديا.

نظمتم حلقة للرقص، حياتكم ضمن الأنصار شكلت فرقة فلكلورية تضم كافة المناطق، رقصتم «بابلكان، شيخاني، جاجاني[9]» مترافقة بأغانيها الخاصة.

أعطى الآمر كلمتي السر للجريح والشهيد وتحركتم نحو الهدف والطريق تطول بكم بمراتها الوعرة والضيقة، في الواحدة صباحاً حَانت ساعة الصفر وتلقيتم الأمر في اللاسلكي »نضج الأكل« وهذا يعني البدء بالهجوم، المفارز كلها في المواقع المحددة، مع الطلقة الأولى صدرت الطلقات من الجهات الأربع، المجموعة المهاجمة الثانية تضم سبعة رفاق يقودهم شاهو كانوا يحصدون الموقع المعادي بنيرانهم.

هتف برفاقه: إنهم يهربون ساندوني سألاحقهم، فوهة البندقية تزأر للانتقام التاريخي، قفز كنمرٍ، يحاول الانقضاض على الفريسة قفز إلى صخرةٍ أخرى، حاصرته النيران أختبأ خلفها، ونصب عينيه على الموقع الذي لابد له من الوصول إليه!!.

وما كاد يخطو خطوات أخرى.. حتى صاح آه... وأرتمى خلف الشجرة، زحف تحسس ساقه أحس بلزوجة الدم وحرارته وصلت زيلان إليه مساعدته في المجموعة.

- ماذا حدث يا رفيق؟
- لا شيء جرح بسيط
- كيف هذا أنت تنزف نزعت قطعة قماش من مشدِّ ظهرها « **\/tik**» وربطت مكان الإصابة باحكام وخفة لمنع النزيف، اضطرت لسحبه إلى الموقع الخلفي لعدم استطاعتها حمله.

عض شاهو شفتيه بقوة وخاطبها: لا تستطيعين حملي واصلي الانسحاب والحقي بالرفاق.

[9] - أسماء لرقصات كردية.

لا أستطيع هذا، ولن أتخلى عنك كيف سأتركك لوحدك هنا؟

- بقاؤكِ قربي لا يفيد بشيء.
- لا لا أستطيع.. لا لن أدعك هنا، وأرفقت جملتها بنظرةٍ يشوبها الرثاء والشفقة، التي لم يرها شاهو بعد أن حملت عنه بندقيته ودفتر مذكراته.
- لا تطيلي الحديث، غادري المكان فوراً، سأتدبر أمري.

ودعته بدموع خفية تسترها عتمة الليل، النقاش الطويل ممنوعٌ في مثل هذه الحالات، تُبتر الكلمات والزمن بقليل من الكلام.

عندما يتذكر شاهو هذه الحالات، تدخل الرعشة إلى جسمه وينتابه هياج واضطراب، ومثل بداية المعركة تتصاعد وتيرة ضربات القلب، وهذا يذكره بلقائه الأول مع أفين والعملية الأخيرة التي فقد فيها نفسه ليجد نفسه هنا ملقى في الزنزانة، الشيء الذي لا يتذكره، الحلقة المفقودة بين إعطاء الأمر لمساعدته زيلان، وحضور الجنود ولكماتهم شتائمهم البذيئة..

* * *

نضج قدر أيامه على مسار الحركة الآلية للزمن، اختزن الثالوث الماضي تلقى ركلات من الحاضر، والمستقبل يصفعه بين الوعي وغيابه، خربشات على جدار الدم، لإخفاء الهواجس المترنحة بالفاجعة المسكونة بالقلق والهبوط، إنشطارات جرح العمر الذي تبعثر، يتكئ على تفاصيل الوجه المريرة، ظلام الجسد يصرخ فيه يبحث عن ملامح الوجوه والوجود بغريزةٍ تطل برأسها من ذاكرةٍ ملتوية تلتف على فاتورة الأحلام، وتطلب الضرائب الباهظة التي هي سنينه وأيامه.

جفل ارتجفت وجنتاه، أستسلم بكليته لمعزوفة الألم، شعر أضطراباً ضرورياً وصعدت أفكاره إلى قمة الهرم الذي شيده، نفض الغبار عن سعفة الأمل، وبصوت لا يخلو من الصخب خاطب الجدران :

- ما وجدت إلا للهدم وما وجدت الأصفاد إلا للكسر وضرب بقبضته الجدار.
- نظر المعتقلون ناحيته وخرجت منهم همهمات، وفي هذه اللحظة قام هتاو من مكانه أقترب منه وجلس على ركبتيه راكعاً أمامه، بينما كان شاهو يرتجف والإنفعال بادٍ على وجهه.
- ما هذا الجنون؟ أرجوك لا تصم أذنيك عما أقول.. يجب أن تتحلى بالصبر، ولا تثير انتباه السجانين إليك أتدرك حقاً ما هي الإرادة التي تتحدث عنها؟ إن كثيراً من المناضلين قضوا أكثر من عشر سنين في هذا المكان.

وأردف هتاو يقول:

الصبر - ياشاهو- هو الجدار الصلب الذي يسند ظهر الثائر، عليك أن تروض إرادتك ليصبح لك احتمال بلوط الجبال وشكيمة صخورها وهل ننسى المثل الذي ضربه مظلوم دوغان وكمال بير في عزيمتهما وقوة إرادتهما، وكيف جعلا من المعتقلات أكاديميات عليا للثوريين..

كان شاهو يصغي مطرقاً، وهو يفكر بكل حرف قاله هتاو، قبل أن يجيبه أخيراً: معك حق، فعلينا جميعاً أن نتحلى بالصبر...

سارع هتاو إلى طمئنته أكثر وقال له: على كل حال فإن الرفاق بالإشتراك مع المجموعة اليسارية التركية قد أنجزوا المرحلة الأولى من فتح النفق، ولن يطول بقاؤنا هنا، فقط اصبر وسترى ومن شروطنا انك ستكون معنا وعند ذاك ستتحسن صحتك.

- أتعلم يا هتاو إنني أشتاق للجبال ودروبها الوعرة إلى قراها الغافية بأحضان العرائش والنسيان، وللفتية الراقصين حول النيران في الأمسيات، لنغمات الطنبور وشاي أمي قال شاهو ذلك وضاع حلمه في البعيد البعيد...

أجابه هتاو: وأنا أشتاق إلى الطنبور وهب من مكانه خالجه شعور أنه يعزف لها قام من فراشه أنزل الطنبور من مسمارٍ في الجدار، نزع عنه الرداء وتذكر كم مرة قال لها: سأعزف سيمفونية حبنا على عمودك الفقري وكانت ميديا نحيلة لدرجة أنه كان يستطيع أن يحصي فقرات ظهرها من فوق القميص وكان يمرر أصابعه على ظهرها كما على الطنبور وهي تتحسس من هذه الدغدغة.

- يكفي.. يكفي.. أنت تخنقني بهذه الحركات وما زال واقفاً أمام الجدار الذي شكل سداً منيعاً، يعود به دائماً إلى الواقع رغم اللحظات التي يشعر فيها بالراحة والحسرة معاً وهو يسبح في ذكرياته.

الليلة شديدة البرودة، وفي هزيعها الأخير، كعجوز تتكئ على عكاز الفجر، والشمس في مكانٍ آخر تقوم بمهمتها الأزلية بشكل إعتيادي، توزع الضوء هناك، السماء المتلألئة بالنجوم قبل الآن بساعتين تختفي ثرياتها واحدة تلو الأخرى، رحم الظلام في مخاضه يسارع نوبات الطلق المؤلم، مزق السواد تتلاشى، وسيبزغ الفجر بجبهته المضيئة، ويأتي يومٌ آخر.

إنحدرت دمعةٌ دافئة على وجنة شاهو تشتت أفكاره، قهقهت الزنزانة في وجهه ورماه التعب أرضاً.

* * *

-2-
أرجوحة النار

[3]

هتاو يسير في الشارع يحمل في يده صحيفة، » في شارع الستين« يتطلع يمنةً ويسرة، يبدو عليه أنه في مهمة عاجلة يود الوصول إليها.

المتسوقون في حركة كالنمال،استدار إلى اليمين وأنحنى برأسه، يبدو بطوله مثل نبتة دوار الشمس، شعره الذهبي يتراقص على جبهته، سرب الأفكار في رأسه يحلقّ بعيداً تذكر ميديا وماذا قالت له في آخر لقاء لهما » ماذا أقدم لك؟«.

الظلام يمضغ الأفق بثغرٍ سكران، فقط الإرتعاشةُ دائمة الحضور لجسدين غضين.

أعادت السؤال وكل شيءٍ فيها يرتجف، حتى الغسق فوق الجبال.

دغدغت الصمت برؤوس أناملها، أقتربت منه أكثر، أحست أن أنفاسه الدافئة تتسرب إلى شفتيها، وأندمجا في عناقٍ طويل...

دون أن تفلت يديها التي تحاصر خصره، أنسحبت بشفاهها المتشهية إلى الوراء، وألقت برأسها على كتفه، وهي تشده أكثر.. أكثر.. إليها، وبصوتٍ تملؤه الشهوة: خذني كلي، أو دعني أشطر جسدك وأختبئ فيه، أبتلعني، دعني أذوب فيك، مسد شعرها الفاحم وجذبها إليه أكثر.

- لا أتصور كيف سأعيش بدونك إنكِ وجدتِ على هذه الأرض لتكوني لي وأكون لك

أمسك هتاو بيديها الناعمتين وخاطبها: -يا عزيزتي صعب ما تمنحينه لي لا أستطيع أخذه...

- سألته ثانيةٍ وكل جسدها يرتجف:

بودي أنا أهبك كل عمري وهتاو كان يمشط شعرها بأصابعه...

أرتدى الليل معطفه، وبانت على كتفيه النجوم والأوسمة، كان قد أعفى خفير النهار من مهمته قبل ساعةٍ من الآن.

وقال: أن تبقي معي لا أريد شيئاً أكثر من هذا، إن لذة اللقاء بكِ، تجعلني أطلب الموت، وأطبق عيني على هذه السعادة مدى العمر، عندما تكونين معي الحياة أجمل.

صمت الاثنان معاً، وأطلقا أيديهما وشفاهما بحرية تامة، الزمن يودعهما ويعدو سريعاً.

- كم تحبني يا عزيزي..
- لا أستطيع الإجابة..
- لماذا؟
- لساني وحده عاجز عمّا أريد قوله.. أحتاج إلى الطبيعة وكل كائناتها ليقولوا معي: الحياة بدونكِ جافة، وهذا الكون يضيق بهذا الحب الكبير.
- وإذا أحببت غيري؟
- هز رأسه –أنتِ- »ميديا[10]« الساحرة.

رفعت رأسها ونظرت في عينيه وتعانقا ثانيةً في قبلة طويلة ولفتهما الطبيعة بروائها الأسود.

شعرا بأرتخاء جسديهما أسندت رأسها على صدره وهما أقرب إلى الغيبوبة، وذابا في شهوةٍ كبيرة، نشوة اللذة جعلتهما يشعران بأن الأرض تدور بهما!..

لا يستطيع هتاو نسيان تلك السعادة مدى العمر.

[10] - ميديا الساحرة: أحبت جاسون وعندما أحب غيرها قدمت للعروس فستاناً من الحرير أستحالت بمجرد لبسها له إلى كتلة من الرماد.

قبل أن تودعه قال لها: أرجو أن نلتقي يوم الأحد المقبل، أستدارت دون أن تنظر إلى الخلف، وأختفى شبحها في أجمةٍ كثيفة الأغصان..

كان هتاو يبني كثيراً من الآمال على رابية الموعد القادم وآماله ترتفع كالقلعة تشرف على كل »هولير« وأعلى وأكبر من جبل »سفين«.

نشوته غامرة ، الدنيا لا تتسع لأحلامه.. هو الآن قادر على احتواء المدينة بناسها وكلابها وغبارها في قلبه الصغير.

الأشياء التي تحدث حوله، لا تثير انتباهه، خطواته تطبع أقدامه خلفه، بعد ان مرّ من فوق بركة ماء صغيرة.

أمرأة تمسك بيد صبي، وتنبهه إلى السيارّات المارّة، تحمل بيدها الأخرى كيساً، الصبي يشير بأصابعه الصغيرة، وكزته أمه.

صوت الباعة يرتفع وينخفض بموسيقاه الشاذة ينادون بأسماء معروضاتهم.

صوت الطلقات يتناهى إلى سمعه، نزل من قلعة «هولير[11]» بغبطةٍ، وصل إلى وزارة العدل وقف برهة يقرأ اللوحة المكتوبة بحروف بيض على أرضية سوداء، وسخر في داخله من كلمة العدل، التي تشوهت أمام ناظريه، وتحولت إلى لوحة سوريالية، لها قرون تقف على قائمتيها الخلفيتين وتناطح الضحية.

تابع طريقه بجانب جدار القلعة على الرصيف، شاهد مجلات أجنبية وكردية وعربية معروضة، وصور لأبطال السينما (أرنولد، سيلفستر، فاندام، ومادونا بأثدائها المثيرة) ومجموعة كبيرة من الكتب القديمة، وسلك دقيق عُلقت عليه صور (آبو، والبرزاني، الطالباني، شفان بلحيته الكثة وكأنه ينادي بمعزوفته ويدعو القادة إلى الوحدة) وعندما سأله عن سعر الصور، أجاب الرجل بدون اكتراث.

- ديناران، ديناران، خمسة دنانير، وأشار بيده إلى صورة »آبو«

- ولمِ هذه أغلى؟!!

- ابتسم البائع من تحت شاربيه لأن هذا يطالب.. بكردستان وهؤلاء بحكم ذاتي، وخرجت ضحكة هازئة ولا مبالية من بين أسنان لم تعرف الغسل منذ زمن طويل.

- قال هتاو بينه وبين نفسه »حتى قانون العرض والطلب دخل إلى صور قادتنا« !!..

همّ بالحركة.. خالجه شعور وهو ينظر إلى بائع الكتب والصحف والمجلات العتيقة على الرصيف، شارباه الكثان علتهما طبقةٌ صفراء من الدخان، حدّق بالأشجار المهملة على الرصيف، كانت مطلية بالكلس، والأغصان مهملة كذلك وبدون تقليم، نفذت إلى أنفه رائحة الشواء من مطعم قريب للشاورما ثم استدار إلى بائع الكتب تناول كتاب «لشيركو بيكس» نظر إلى الغلاف، وبرغبة قوبة وضعه بجانب كتاب «كوران» والحق أنه لم يكن يملك ثمنه لكي يشتريه وخاطب صاحب المعروضات:

- هكذا أفضل؟؟

لم يتلق الجواب... كان جاثياً أمام كتب صفراء الأوراق يرتبها بأنشغال تام عنه فجاوب نفسه.

- أليس كذلك...

وتدفق نهرٌ من الضجر في داخله، أشمأز من السيجارة التي كادت تحرق أصابعه، ووضع عقبها تحت قدمه بقوة وسحقها.

عبر كل هذه الأشياء وهو يود أن يختصر الطريق والزمن معاً يقبض على الزمن، ويضع صدره تحت نعليه ويسحقه كما فعل بعقب السيجارة، جسده مثخن بجراح لامرئية، قبل تعلقه بميديا حياته ظلام وليل دامس، هي وحدها النجمة المضيئة ومن خلالها يرى النور، ويبدد سواد أيامه.

[11] - هولير : أربيل

سقوط قذائف في «عين كاوى» تلك المدينة التي أعتادت على الصخب والدماء لا تعرف الهدوء من » نبوخذ نصر« إلى الآن وهي تحترق ولا تموت.

أستنتج المعادلة الرهيبة التي تقوم فوقها هذه المدينة، نار، دخان، دم، موت.. هذه هي إذاً أربيل وهذا هو مجمعها الإلهي...

في الجهة المقابلة شاهد مجموعة من رجال البوليس بثيابهم الرسمية، يتراكضون نحو محلة » شورش« قال في داخله: هناك شيء غير طبيعي يتراكض الناس من أجله إلى تلك الجهة، لكن اللقاء المرتقب مع ميديا، وحّبه الشديد لها، وخوفه من تعكير صفوهما في ذلك اللقاء جعله لا يفكر فيما يمكن أن يزعجهما، كان كأنه يطير على آلاف أجنحة الفراشات ، الجو أمامه سديم يتراقص بأفراح اللقاء، حتى السماء نفسها بدت له آنذاك وكأنها ملاءة من الزبد الأزرق الفاخر، لكنه أحسّ فجأةً وكأن طائراً أسطورياً ينقض على مضغة قلبه الصغير، وينشب فيها مخالبه لقد تحوّل عصفور الفرح الذي كان يظن أنه قد قبض عليه وراح يداعبه إلى جمرةٍ ملتهبةٍ تحرق كفه، فعندما أقترب من بيت ميديا شاهد جمعاً غفيراً من الناس حول منزلهم تلاطمت أمواج الأفكار في رأسه وقع في حيرةٍ من أمره، لا يعرف كيف يتصرف، صعد الدرجات إحساسه وقلبه يسبقانه، شقَّ لنفسه الطريق وصعقته المفاجأة وأطارت لبه، لقد وجد ميديا متخبطة بدمائها، ومن حولها النسوة يصرخن، لقد طارت طلقة بدون جنسية، لتستقر في صدرها، أرتج كيانه كله، داهمه الدوار وأرتخت مفاصله، ولم تعد ساقاه تستطيعان حمله، كأن الرصاصة قد أستقرت في قلبه هو، مزقته، بعثرت كيانه، وجعلته حطام أشلاء كانت جراحه تضاهي جراح الوطن الأخير وقد فغرت أفواهها، لم تكن تنزف، بل ترسل طوفان دم، يقتلع كل شيء، كل شخص كل أحساس في تياره الجارف، لكنه كان دماً أبيض.. ياللرعب، كل ذلك الدم كان حليباً مسفوحاً.. دم براءة وصدق، دم غزال مطعون في برية من الوحوش الضارية.. (ميديا.. ميديا..) يا حبيبتي، يا أميّ!! هذا صراخي.. صراخ العاشق.. فليسمعني دمك الطاهر، أقدامك، شعرك، أصابعك التي من بريق!..

يا ميديا، يا زهرة الجبال، التي تنبثق من عبّ الثلج والطهارة، يا شمس صبحي ونرجسة الندى أيتها الحبيبة الأكثر نقاءً من دمعة طفل.. والأعلى شموخاً من جبال آرارات.. أيمكن أنكِ تتمرغين في أحضان الموت، إي يد للبغض أستطاعت الأنقضاض على رهافتكِ؟ وإي مخلب أسود للوحشية أستطاع أن يجرح عذوبتك؟..

* * *

الحبر هذا الكائن الأسود، لايعرف الموت، من يمتطيه يسير على السطور نقاط وحروف تجتمع لتشكل اللغة، بها نهدي الآخرين وغالباً نخدعهم.

هؤلاء القساة الذين بكلماتهم، يرفعون من شأننا إلى أنصاف آلهة فوق مستوى البشر، وبكلمات يهدمون القلعة التي بنيتها بدموعي، وإذا كانت الطلقة تخرج بقرارات وتستقر في جسد الضحية، وترتفع الشعارات منارات شاهقة، يذهب في سبيلها المئات بل الآلاف، ولاتبقى طويلاً حتى تنهار، كأنك تحلم بشيء جميل وفجأة يتحول إلى كابوس مرعب، لتضاف إليها أرقام جديدة، تذهب إلى المكان الذي لايعود منه المسافرون.

كان هتاو يفكر بصوت عالٍ ودموع صامتة.

- آهٍ ليتكِ الآن بجانبي لتعرفي مدى معاناتي.

استيقظ من غفوة الحلم التي أغلق أهدابه عليها، هي نهاية كائن وضع آخر حلم له على وسادة أحلامها، وهي تركت الوسادة خالية، ودخل الكابوس إلى شرفة الحلم، واسودت الدنيا في وجهه.

ارتعد، ارتجف، وبكى، خاطب نفسه:

أنت كائن مسخ لاتستحق الحب والتضحية، الذي سمعناه وتحدثنا به كلمات مجرد كلمات، فارغة جوفاء، نحن نبيع الكلام والشعارات، وتقاس الوطنية بمقاسات سراويلنا، لأن من بين كل الكائنات، البشر وحدهم يرصدون أموالاً طائلة وأرواحاً كثيرة يزهقونها، يسمونها الحرب، من

أجل الوصول إلى غاياتهم، إنهم سيدفعون المحررين في الجرائد ليسلطوا سيوفهم على رقاب الحقيقة، إنها الحرب من أجل الفوز بالسلطة، لايخجلون كل السفالات مباحة في السياسة، والكتاب المأجورون هم سفلة حقيقيون، ليقولوا: إن الحزب الأصفر على حق، أو الأخضر على حق، وبذلك ترتفع أصوات أبواقهم.

ألسنا في مجتمع استهلاكي، ندفع فاتورة الحب، وضريبة المشي، لاأرصدة ثابتة، إنها البورصة، بورصة الموت التي تجعل من الذات أسهم ناقصة في شركة الحياة، أنت مجرد صفر في أرشيف العدم ياهتاو.

-لماذا تبحث عن نفسك، فقد سقطت سهواً بين فخذي الحياة «أناديكِ ياذاتي المهترئة، على الطرقات، الترحال ظلك والألم زوادة سفر».

وهاهو في حلقة أوتاد تكبل أطرافه بوحشية، يترنح في حلبة الأوتاد التي تحاصره وهو مبهوت، رائحة الشواء في جسده دهنٌ على الجمر، يبحث عن الدفء في الثلج، وعن منديل جاف ليمسح به شرارة الألم من عينيه، خطوات تجرجر أيامه الشاحبة المصفرة، وتنزف منها القصائد على التراب. أي فوضى تغرز أظافرها، وتهرش فوضى الروح، وهو يختنق بحبل التاريخ ولايخرج من حلقة الموت، التي تزيد الخناق عليه، وتتدفق أفكاره دماء قديمة وحديثة، جلس على الرصيف، مد قدميه، أسند ظهره إلى الجدار، وهو لايعي شيئاً مما حدث له، ولا كيف قطع الشارع؟ وترك خلفه حبيبته تغرق بدمائها.

يحدث نفسه: «إن هذه العبثية ارتدت عباءة الديمقراطية، وأية ديمقراطية أتحدث عنها وماهي شكلها، وهل يوجد شيء بهذا الأسم في الواقع؟ أم هي كلمة اخترعها البشر، مثل كل الكلام، والكلام هو الكلام ولا شيء سوى الكلمات».؟!

- وإذا كانت هذه المفردة تخفي في جسدها مزرعة من الصبار، وكل شوكة تحمل سموم العشائرية واقليمية اللهجة.

- ماهي الألوان؟

ألعن الألوان، وأبا الألوان، وصنع خلق الالوان, أصفر موت أخضر موت, نزاع, خلاف, كراسي, سلطة.

تزاحمت كل هذه الافكار في رأسه, وأمتد هذا الانقسام إلى داخله, اشتد وطيس المعركة.

شاهد أحشاءه تتدلق امام قدميه, وكل عضو في جسده يحمل راية, يتكلم لهجة, ويعتنق ديانه, ديمقراطيون, يساريون, المحافظون, لاويوّن..

اراد أن يهاجم تلك الصور التي شاهدها على الرصيف, وأن يمزقها بأسنانه, وصرخ بهم أن يبتعدوا عن جسده, صرخ حتى أغمي عليه.

أمتد إلى كل خيط في حياته، ليشمل عُري الأشياء والأيام المُرة التي مّرت، وبعثرت آخر حلم له هكذا تراءت له الأشياء، ولم ينتبه إلى حقيقة نفسه إلا على صوت الزمور والمكابح على بعد أقل من متر منه، شتمه السائق كأنه لم يسمع شيئاً، وأتجه ثانية ولا يعرف إلى أين يسير، كانوا يتحدثون بجانبه عن المذابح في «قوش تبه» والهجوم على المشفى وقتل الجرحى فيه.

- قال: بما أننا نحب مدننا كثيراً لذلك نكافؤها بالقرابين الحرب الأهلية والصراع على أربيل قتلت الأمل الذي نسجناه بأزهار الحب.

أنت تتذكر صغائر الأمور معها، لون ثيابها، ضحكتها، شعرها، طريقة نومها، أحمر الشفاه، فتحة الصدر، كتابها المفضل ، آخر يوم قضيتماه معاً في «شقلاوة».

كانت المرارة تزنر خصر أيامه، أنهارت قلعة آماله، وتربع هتاو ملكاً على عرش الضياع، مع أشلاء ذكرياته، يبحث عن ظلال المازيا وينبوع الحب.

-كفاني وقوفاً كالتمثال على مفترق الطرق، يجب أن أقرر.

وصورة ميديا احتلت في متحف أفكاره، مكاناً بارزاً تواجه رغماً عنه هتاو يحمل ذاكرة مغبرة، يتصاعد منها الدخان، وتسيل منها الدماء، تركن إليها الجماجم، ويختلط فيها النابالم بالندى، أكبر مساحة فيها هي الموت.

هاهو يتذكر اللقاء الأول، عندما كانت تلميذة صغيرة، تجدل شعرها

في ضفيرتين ، وتعلو فمها الصغير أبتسامة دائمة، وعندما تتحدث ترسم غمازتين على وجنتيها.

يذرع بوابة المدرسة، ينتظر خطواتها المراهقة بصبر، يصطحبها إلى أقرب شارع من الحي، يفترق عنها.

- قال لها أحُبكِ...

وكرر هذه الكلمة آلاف المرات، آنذاك كانت تحمل على صدرها ثمرتين لم تنضجا، أما في اللقاء الأخير فقد قبلها بشوقٍ كبير، شعر بأن نهديها كزوج حمام يحاول الهروب من سجن القميص.

- يا عزيزتي كم كبرت بسرعة، أم أن الوقت معكِ يمضي سريعاً دون أن أشعر به، كم أشتاق إليكِ وأنتِ معي.

- أنا معك ولن أفترق عنك أبداً، حبيبي لن أحب أحداً سواك.

أجابته وهي تعبث بشعر صدره، ورفعت رأسها نحو الأعلى أردفت تقول.. قبلني إذاً أكثر وأشارت إلى رقبتها، يعجبني ذلك كثيراً، يكفينا مارأيناه من القسوة حتى الآن، لماذا أبكي وحيدة، دثرني... دثرني.. لفني...لفني.. عانقني أكثر.. لا أريد الابتعاد عنك أبداً.

تمنت أن تتعرى من ثيابها، وهي تطبق عينيها على هذه النشوة، لكن الحياء والخوف جعلاها تمضغ الحب بجسدها، شفاهها وأصابعها بدون صوت .

فتح هتاو عينيه، ونظر إلى عينيها المغمضتين، ومن ثم إلى فمها الغير مغلق تماماً، كانت شفتها السفلى اكثر أحمراراً.

خاطبها: ها أنتِ معي فلماذا الحزن؟

ونزلت دمعة من عينيها فلثمها.

- أشعر بكل حنان الدنيا معك، عانقته بقوة جذبته نحوها بشدة وهي تود أن تسحق نهديها على صدره.

- أنتِ ملاكي ولا يليق بالملائكة البكاء، أنتِ لي وأنا لكِ، إذاً نحن شخصٌ واحد.

شعرت ميديا بالإرتياح والطمأنينة فالصق هتاو شفتيه بثغرها المرتعش وطبع قبلة عليه.

- لاتخشي شيئاً في الدنيا عندما تكونين معي.

أجلسها في حضنه وهو يطوقها بذراعيه من الخلف.

همست: من يضمن بأنني سأبقى معكِ إلى الأبد وأستدارت لتنظر من فوق كتفها إلى هتاو.

هتاو يعيد صياغة كل هذا الحوار.. وهو يلتقط أنفاسها على رصيف الغياب، رمقه الرحيل معاتباً من يضمن بقائها إلى جانبك،؟! أجل من يضمن ذلك يا هتاو؟!!.

تاه في الشوارع كثيراً ولا يعرف بالضبط في أي ساعة من الليل وصل إلى البيت، أجال بصره في الحجرة، وقعت عيناه على آلته المحبوبة وضعها في حضنه، أنحنى فوقها كأنه يعانقها، ثم تناول الريشة وبدأ العزف كان أزيز الأوتار يحمل رائحة الدم والموت.. جنازة.. جنازة... جنازة، هكذا كانت تخرج النغمات، وأغمض عينيه متقياً وهج الموت، الموت المقبل نحوه بكل قوةٍ، وصل إليه.. جاذبه، فرّ منه، وعاد يسمع أصوات الطنبور كأنها صارت تلقه، تمّد أذرعتها الكثيفة، تلتف حول عنقه، وبعضها يقترب من شفتيه المعضوضتين إلى حدِّ البتر..

- شفتيّ تراب.. وفمي، لا تقتربي يا حبيبتي.. قلبي مليئ بآهةٍ على وسع الدم، وسع الوطن.. حبيبي، ضمني أكثر.. قبلني، خذني إليك، ضمني بعنف.. الطنبور صار لدناً أكثر،

كأنثى في ذروة الشبق.. زحام النغمات والأصوات وصخبها يطبق على سمع هتاو، كصراخ ما زال يتردد منذ آلاف الأجيال:

- يا حبيبي... يا حبيبي..

الصراخ – أيها الحبيب- الصراخ!! الصراخ الذي يلف المدى والوجود والزمن، هذا كل ما كان الطنبور يصدره... إلى أن هوت يد هتاو بضربة لا وعي إلى الأوتار فقطعتها دفعةً واحدة، وراح الصدى يردد صوت تلك النغمة المبتورة التي أرتدّت كلها عن جدار الواقع، وأصطدمت بوجههِ، أعمته، وأبكمته ولم يعد يشم بعدها إلا رائحة القتل والدم.

- حبيبتي، أيتها الأوتار الذبيحة، أيتها النغمة المغدورة، المطعونة بيدي ذاتها، يا شهقتي المخنوقة قبل الفطام، قربي شفتيكِ من فمي، وسّعي الجراح والصرخة، شفتك يا حبيبتي يابسة كخطوة الموت!..

كانت الأوتار تتدلى كضروع عجفاء في الريح، والطنبور الذي كان دافئاً كنبع صيف، أضحى بارداً ذابلاً كزهرة دا ستها الأقدام عمداً بكل قسوة الكراهية..

الطنبور الآن كان فيه نداء القبر!..

صرخة واحدة كميديا التي نزفت دماً حليبياً من نصال الغدر!

هتاو الذي كانت أنامله ما تزال تخفق في الريح على وجه الطنبور وكأنه ما يزال يعزف لم يكن يدرك أن يده ذاتها هي التي بترت الموسيقا وهي التي حولت شفتي ميديا إلى تراب وكلماتها إلى موت من تماثيل الحجر!..

- دثرني، يا حبيبي، لفني بكفني، إنما أنزلني برفق في عتمة التراب ووحشة القبر، أتركني هنا وحيدةً في رحم أمي الأرض، سأطلع ثانيةً إليكَ عريشةً تظلل وجهك، أو شجرة جوز تستند إليها قامتك الطليقة.

هتاو، لم يكن يدرك الآن أنه بدأ يحفر.. يحفر.. ويحفر، في كعب جدار حجرته، ينثر التراب كيفما أتفق، هنا وهناك، غائصاً في التراب الرطب، يده طليقة من حمّى الخدر، وركبته اليمنى تغوص في زمنٍ آخر وتربةٍ أخرى، والموت يستوطن رأسه، «حبيبتي في ركنها المعهود الذي لا أعرفه، أيها الموت يا شقيقي لا تقترب منها حبيبتي، نامت على ركبتي، لا تصعدي يا ريح وتوقظي نوم حبيبتي!».

يحفر.. ويحفر، والرعاش يستولي على الإدراك ، كان كل شيء يهتز يصعد ويهبط وكل القيم والوطنية والمعاني تتساقط في عتمة نفسه، عميقاً عميقاً، هناك وراء ستائر اللاوعي، وفي ظلمة الألم القاهر. ألتفت هتاو إلى ما حوله، كان » غلاف « الطنبور مرمياً هناك – على الكرسي- صامتاً ككفن عنقه يتدلى على الحافة اليابسة للخشب البني، أما الطنبور ذاته فقد كان ملقى على السرير صامتاً وجافاً كجسد ميديا، وكلاهما قد نزفا الموسيقا والحب حتى الموت!!..

- خذني على ذراعيك يا حبيبي، لفني بالكفن، بثوب عرسي، أغلق بصري بأناملك، مسّد شعري لآخر مرّةً وأمسح على عنقي، دع لهاتك يدفئ مفاصلي الباردة، لفني.. لفني.. أنا لك ثمرةٌ ناضجة، من حلاوةٍ ودفءٍ، ضمني أيها القاسي كالهجران..

كما ترفع القرابين عن المذابح الملطخة بالأدعية، رفع هتاو، غلاف الطنبور، يحيط به وهج من ضياء كأن الهواء خثارة نور واسعة على مّد البصر!..

وكما يُكمل لباس العروس المزفوفة في محفة الآلهة، بهدوء وقدسية، لف هتاو الطنبورة بدثارها، هكذا على مهلٍ.. العنق.. الخصر.. الشعر... الأوتار المقطوعة صارت خصلة شعر مشطتها راهبات الهيكل وضمتها حول الجبين ضفيرةً واحدة نازلة إلى العنق الأغيد، ويُغلق الفم الأخير نبع الحب والموسيقا، يركع هتاو ككاهن على ركبتيه يمدُّ ذراعيه برفق، برفقٍ أكثر.. فأكثر.

- إرفعني .. إرفعني يا حبيبي.. من الكاحل إلى العنق، أنا لكَ من العشبة الرطبة، إلى القلب المطعون، والعنق الرهيف، إرفعني.. إرفعني إلى صدركَ.. إلى عينيكَ.

جسدكِ بين ذراعيَّ –يقول هتاو – خمير حب لا ينتهي وقلبك المدمى قبالة قلبي قربانٌ مأخوذ للمعبد والأروقة، مقدم على مائدة الآلهة كفاكهة آسيوية مبلولة بالأرجوان، أو سمكة طازجة من نقاوة دجلة الأعلى..

أعلى.. أعلى.. يرفع »هتاو« جسد (ميديا - الطنبور) كأضحية تُقدم للإله، ومن الزوايا الأربع للبيت، نوافير نور بدأت تصعد.. تصعد كأن كاهنات البريق حملن أباريق الحمَّام العرائسي، ورحن يتقدمن على سُحابات ضوءٍ من ذهب خالص..

أربعة.. أربعة.. هذه هي جهاتك، أصولك، أجزاؤك الأربعة، رضاعتك، وشبابك، رجولتك، وشيخوختك.. أمك، أبوك، أختك وأخوك..

تحمل –يا هتاو- أرباعك الأربعة، أختك، وأمك، حبيبتك، وأبنتك، ميديا... ميديا، إلى القبر.. يأسك، أو عزاؤك، فشلك أو صمودك!!..

- لا يحدثني أحد عن الصمود والإنكسار، عن الحبيبة والوطن!.. لا يحدثني أحدٌ عني أنا الهوية والوطن، أنا الجهات الأصلية الأخرى... ستخرس أخيراً الأمكنة الرعناء في الروح وستسقط أيضاً، فيما بعد.. بعد الهدوء، بعد الرواح والغدو، أمكنة الجسد ورايات سوف تتكسر بعد تلك الرايات حتماً، لكن!!!.

كان هتاو على شفة الحفرة، ركع حاملاً ذلك الجسد الخفيف الحبيب الموسيقا، الصمود، الحب كله، ميديا والأغاني، الأغاني الحنونة عن الثلوج والجبال والأنهار، أصوات الشلالات والجروف والحجل الملون، بتطريزات صخر الجبال العاري تحت الريح والمطر والثلج، مّد هتاو يده بالجسد المضرّج بالموسيقا..

- ميديا، يا أمي، تعودين الآن إلى الرحم الرطب..

ميديا، يا أختي، تعودين إلى البذار الأول للحياة..

ميديا، يا أبنتي، تعودين إلى العتم الذي ينشقُّ منه النور..

ميديا، يا حبيبتي، تعودين الآن.. الآن، إلى الجذر الأصيل للخصب والحب..

هذه صلاتي، صلاة العاشق، الحبيب، الأب، والأبن والأخ، أنا راكع على ركبتيَّ، ركبتيَّ الخشنتين من الصلاة وقلبي المضرج بالظلم والدموع فلتأخذي أيتها الأرض الحلوة ما أعطيتِ، ولتأخذ أيها التراب العزيز ما وهبت.

لم ينتبه هتاو إلى أركان حجرته التي بدأت تشتعل بالأنوار من أربعة أركانها، نوافير من الضوء بدأت تشرأب إلى فضاء البيت لتجتمع عاصفة بالمكان نوراً خاطفاً.

هتاو، حاول في ذهوله، أن يبدأ بإهالة التراب فوق جسد الطنبور -ميديا- لكن الأنوار الأربعة المتحدة في تشكل نوراني صاعق، أنقضت فوقه، مرّت على يديه وعينيه وقلبه، فصعق وتوقف الزمن، لحظة أنبهار أخيرةٍ.

- ياميديا، يا أمي، حبيبتي تصعدين الآن.. كانت الأنوار المنقضة قد أختطفت وعاء الحب والموسيقا، وذهبت به إلى أحضانها.. هناك، هناك، في الأعالي..

للحلم دربه السكران، للعشق مواعيده، للخصب والحنان، من ذاك يفرش ثوب الدفء على قمتك الثلجية الباردة يا بلادي، من ذاك الذي خلع سترة الفجر على نقائك أيتها المعطاءة، الجميلة، رغم أنف الدم والحزن، والقهر..

يا حبيبتي يا نغمة وجودي يا ميديا يا عشقي الأخير.

بعد حين يستيقظ هتاو من صعقته، الأنوار ذهبت والحجرة يملؤها نسيمٌ معطر، ينظر إلى الحفرة ويتابع إهالة التراب معتقداً أنه مازال يدفن جسد حبيبته المثخن، وطنبوره المحطم.

يغفو متعباً مرهقاً دون أن يدرك فارقاً بين نومٍ ويقظة، يغفو على أحضان كابوسه المريع، وعندما تدخل امه إلى حجرته في الصباح، لا ترى شيئاً إلا أنه كان ينام متكوراً على الأرض بيأس، تصرخ به لتوقظه، وهي تنفض بعض الغبار العالق على الطنبور المعلق على الجدار، ثم تصلح وضع صورة غيفارا الذي كان ينظر كأنه حاضرٌ حيّاً هناك.

* * *

مرت الأيام الرتيبة، تثقل كاهله والحزن والفراق يتربص به من كل زاوية ولا يستطيع أن يخرج من هذه الدوامة.

شاخ الليل في الخارج، يسمع حفيف أوراق شجرة التوت التي تواجه غرفته، وفي الداخل صورة مختلفة عن الخارج، تشكل مع محتويات الغرفة لوحة غير منسجمة، الهدوء فارٌّ من كل شيء، بدءاً من التنفس إلى دخان السيجارة المنسية، الأشياء المرئية واللامرئية تتحرك، الإحساس، العاطفة، الروح، أجتمعوا كلهم دون موعد.

نزل خيط فضي من عينيه والتمع أمام الضوء الخافت، جسده كان يطبع صورة كبيرة على الجدار، بقي هكذا للحظات ينظر إلى لا شيء، سبح مع تيار أفكاره، وضده، دوائر الدخان تحتضر وهي تفارق السيجارة، وتلتقط أنفاسها على مرأى عيني هتاو.

الليل في الخارج تشح بالسواد يؤازره في نعوته، الأيام الماضية كانت تمسك بتلابيب ذهنه، وتجعله بدون إرادة، السلطة المطلقة للذاكرة هي الحاكمة.

فكَ أصابعه المتشابكة تحت رأسه، أعتدل في فراشه، نظر إلى الستارة البالية، وهي تتأرجح على النافذة، أطفأ ما تبقى من السيجارة بعد أن دخل قليلٌ من دخانها في عينيه.

أرتفع صدره وأنخفض بتنهدة عميقة، سحب من تحت الوسادة دفتراً وقرأ الرسالة التي أرسلها يوماً إلى ميديا.

- في البداية أقول انني لا أدري بالضبط لماذا أكتب لكِ؟!

وتابع : كل ما في الأمر، إنني شعرت بالحاجة إلى إنسان أفضي له بقليلٍ من الأحزان، ومن أقرب إلى النفس منك، وبما أنني أتذكرك أكثر من إي إنسان آخر، فقد أتجهت كلماتي إليكِ، بالرغم مني، الشكوى تخصني وحدي، وقد تسبب لكِ بعض الحزن، أعرفك رقيقة وعاطفية الساعة الآن هي الثانية والنصف، من الصباح، اي صباح هو وقت رخو ينام الجميع، كل المدينة تقريباً نائمة، وحدي ألوث هدوء الفجر بضجيج افكاري وسجائري، أتذكرك وأقارن العالم بكِ، بل أقارن نفسي ، كنت مثلك تقريباً عندما كنت في السابعة عشرة من عمري، وسيم مرح شقي أحياناً، وعندما أصبحت في التاسعة عشر، حدث إني ذهبت إلى الحرب، الحرب التي فرضوها علينا، وأنتِ لستِ غريبة عن هذه الحرب أخوتك كانوا في البيشمركه أيضاً، ورأيتُ كيف نقتل بعضنا من أجل لا شيء، أو كل شيء، مات الكثير من أصدقائي، وفقدتُ أخي وتعرضت لإصاباتٍ كثيرة ، ليس أهمها كسور العظام والجراح الجسدية، بل ذلك الشرخ الكبير في الروح، لقد مات هتاو الولد الجميل المتفائل، وولد هتاو الحزين والبائس، ليس هذا وحسب، بل لقد مات الذي كان الأول في كل شيء، ليبدأ ذلك اللامبالي باي شيء، لم يعد يهمني أن أحقق اي شيء، تصوري أن يكون هناك شخص يمارس الحياة دون مشاعر، فقط أنتِ النافذة المضيئة في عتمة العمر.

لا أحب شيئاً ولا أكره اي شيء، لقد تساوت الأشياء في نظري، ماذا جنينا بعد كل هذه السنوات من الكفاح؟ حكم ذاتي يعيش حالة التمدد والتقلص، حسب ما تقتضيه مصلحة الأقوى وحكومة الإقليم المنقسمة على نفسها.

ولا يدري هتاو أن ميديا ستكون واحدة من القرابين التي ذبحت على أقدام الإقليمية، بعد كل هذا تساوت الأشياء في نظره، ولم يعد يهمه أن تخرب الكرة الأرضية أو تعمر.

لقد صار الآن في وضع المراقب، الذي يرى الأمور من خارجها، بل تعتريه أحياناً كثيرة مشاعر الكره للبشر، وهذا يدفعه إلى حافة الإنتحار.

طبعاً من البساطة قول ذلك لكن الفعل يبدو صعباً للغاية تجتاحه أفكار متناقضة، آمن يوماً أن يموت من أجل هذا الوطن ألف مرة، لأن الموت مرةً واحدة لا يكفي، أما الآن فهو يشعر بالندم لكل ساعة قام فيها بالنضال من أجل هذا الوطن.

بل وسنرى كيف يضحي بكل شيء في سبيل قضيته، لكن المرء كتلة تناقضات، ربما يسكنه الإله والشيطان معاً، أحياناً يستيقظ إله الشر في داخلنا نقمعه، وأحياناً كثيرة نترك له العنان ليربطنا بوتد الشر الأزلي ويقودنا إلى ضفاف القتل.

يتابع الرسالة مرة أخرى.

- حسناً والآن يزحف الصباح ببطء، صباح يوم الجمعة وعلى شجرة التوت العصافير ويوم الجمعة شيء آخر للذكريات وجوان حاجو يغني:

derdê dûrî xwştewî
yad yaran welatim roj û şew
çon pena bu mey nebim saqî edî[12]

وبعد قليل سأتوقف عن الكتابة، أو الكتابة ستتوقف عني وتهملني، ربما مع فنجان القهوة الثالث أو الثالث عشر، بعد أن أنتهى من القراءة، تناول القلم من جيب قميصه المعلّق، فتح صفحة جديدة وكتب فيها:

- أتذكرك الآن بقوة أكثر، عندما رأيتك للمرة الأولى عرفت أن عمق عينيك، شيء له علاقة بالعالم الأساسي، وليس بهذا العالم التافه الذي نعيش فيه، هناك مساحة واسعة من الحنان المملح.

- لماذا حرمتيني من رؤية عينيك؟

حينها كنت أطارد خطواتك بعينّي، أمام بوابة المدرسة، وأنا أشاهد مساحة من الحلم والدهشة في عينيكِ، ووجهك مثل إشراقةٌ شعرية للخالق، أمّا حركاتك فهي التي تفتح أمامك أبواب القلوب، إعذريني أنتِ سريعة الوصول إلى القلب، أنا لا أصدق إنكِ رحلتِ ، وحينما أفكر بهذا أجد نفسي أخاطبك.

أحياناً يا ميديا وحين تشردين قليلاً يخيم ظلٌ من الكآبة على وجهك، فينكشف عمقك الحزين، رأيت ذلك في اللقاء الأخير هل كنتِ تتنبأين بالموت، وتعرفين المصير الذي ينتظركِ .؟!

أنا لا أنظر كثيراً إلى وجوه الناس، لأنني أعرفهم دون أن أنظر إليهم، فالبشر يملكون أكثر من وجه!!؟

لقد أبتعدتُ وشردتُ كثيراً عن الموضوع، وبالأساس كل ما أفعله شرود عن القضية الأساسية، التي أضعها كهدف لحياتي الحالية، واي معنى هناك في أن أكتب ولن تستطعين قراءة ما أكتب ، سأكون صريحاً للغاية، وأرجو أن تفهميني بل أثق تماماً إنكِ تفهميني.

تعرض هتاو لتبدلات كثيرة في حياته منذ أن دخل الحرب لأول مرة، هي شيء ظالم وقاسٍ جداً أشعل هتاو سيجارة آخرى وعبَّ منها بقوة كان يقول في داخله:

- إنني أستغرب لماذا يقتل البشر بعضهم مع إنني شاركت في ذلك بوعي آو دون وعي، لماذا لا يعيشون معاً ويحبون بعضهم البعض؟.

والآن هتاو يعيش بلا حرب، ويحبُّ حبيبته التي لم تعد موجودة. بل تسكن خياله وجوارحه ولا يستطيع أن يقنع نفسه أبداً بهذا الواقع.

تمر الأيام كأي شجرة عارية، أو أي حشرة، والسبت بالنسبة له لا يختلف عن الأحد.

[12] - آلام الغربة يا عزيزي، في الليل والنهار، الأم والحبيبة والوطن.
- كيف لا التجأ إلى الخمرة أيها الساقي.

يكتب كثيراً، يعزف لحن الوداع لها، ينزف أحزانه، كان وجود ميديا في حياته شيئاً أشبه بالسحر، فقد نجحت ميديا أن تمنحه لحظات جميلة من السعادة.

غفى هتاو بينما كانت تدنو خطوات الصبح أكثر..

في الصباح عقرب الساعة يصافح التاسعة، دخلت أمه عليه وأيقظته، أمعن هتاو في وجهها، التجاعيد التي رسمتها السنون، وسياط الزمن على وجنتيها الغائرتين، كانت تبدو أكبر بكثير من عمرها الحقيقي، القهر، الحرمان، الهجرة، والتشرد هي العناصر الرباعية لتشكيل تلك لوحة في وجه أمه البائسة، وهي الأوتاد اتي حاصرت هذا الجسد ليبدو هزيلاً، راقب أمه بنفس قلقة، يجب أن تبوح، ولكن بماذا تبوح ؟.

كان يدور في دوامةٍ لا يستطيع الخروج منها، وشعر بشيء فوق القدسية، وهو يرى غلال عطاء أمة شيئاً، في مواسم العوز، تمنى أن يعانقها، ويلثم يديها، لكن شيءٍ ما في داخله، منعه من ذلك.

ولا يدري أين قرأ هذه المقولة (كما يعود الإنسان إلى أمه الحقيقية، هكذا يجب أن تعود إلى أحضان الفلسفة، إلجأ إلى كنفها.. فتحتمل المصاعب).

مرتّ هذه الأشياء في رأسه سريعاً، وأخفض عينيه، لكي لا يستسلم ويرتمي في أحضان العاطفة المسيطرة عليه، وهو ينوء تحت أعبائها، رأسه مطرق ، عيناه تحدقان بالأرض، أستطال شعر وجهه وصارت لحيته طويلة.

- صباح الخير رد هتاو : -

صباح الخير يا أمي أردفت تقول وهي تنظف يديها المبللتين بمنديلٍ صغير

- على غير عادتك إيقظتكَ باكراً.

أيتسم هتاو مرغماً لكي لا تعلم أمه شيئاً ، وكاد يقول لم أنم يا أمي وكبح جماح هذه الكلمة في حنجرته.

- خاطبته ثانيةً ألا تتناول شيئاً .
- نعم يا أمي.

وفي دخيلة نفسه لم يشعر بشهية لكنه قال ذلك موافقاً ربما تكون هذه آخر مرةً أكل معها ويجب أن أشاركها وهي في هذا الوضع.

دخل خوشناو أبن أخيه، يحمل لعبةً مصنوعة من الأسلاك والخشب تشبه البندقية.

مسد رأسه بحنان، وسأله.. ما هذا يا خوشناو..

- إنها.. إنها بندقية.
- ماذا ستفعل بها؟..
- سأقاتل الذين أخذوا أبي وجدي.. أمي تقول ،هي يشير إلى جدته، صدام قتلهما.
- نعم وهز رأسه بألم، وكادت أن تفلت منه هذه الكلمة ونحن أيضاً نقتل بعضنا..

لم يودع أحداً في البيت، وقف بجانب المنزل كتمثال منحوت، مرَّ بنظره على شجرة التوت، ثم دخل الغرفة بخطواته المترنحة، نظر إلى فراشه الملقى على الأرض، تفحص كتبه القليلة في المكتبة، ونظر إلى صورة أبيه المعلقة، وقبل أن يخطو خارجاً رجع وحضن طنبوره.

قال هي المرة الأخيرة التي أشاهد فيها هذه الأشياء، خرج بخطوات سريعة من الغرفة، وتفجرت دموعه.

هكذا هي الحياة، الليل يدفعنا إلى النهار، والنهار إلى الليل حتى نبقى هكذا، الفواجع عصرت روحه، ونشرتها أمام رياح الآلام.

* * *

-3-
ترانيم الهواء

[4]

مرَّ بين المقابر التي تحاذي السور الأثري ، وقف في وسط القبور وهو يتأملها، البعض منها كان مسيجاً وعليه شواهد منمقة تحمل أسماء أصحابها، وحتى بعض الألقاب دكتور.. إلخ..

ومنها ما كان يحمل شارة الصليب وبجانب الشاهدة مكان لشعلة النار وعاد بذكرته إلى قريته والمقبرة، تذكر قبر والده المحدودب بالحجارة والتراب، تمنى في داخله أن يحمل شاهدة مثل هذه أبعد هذه الفكرة سريعاً، وهو يخاطب القبور.

- هل حققتم ما كنتم تسعون إليه وتكدحون من أجله في الحياة كم من آمالٍ وأحلام دفنت معكم دون أن تحققوها.

عالم الموتى كعالم الأحياء، مثل المجتمع فيه فوارق طبقية، بعض القبور مهمل لا تعرفه سوى من الحجارة أنه قبر ومجهول الهوية، وهزأ متن كلام شيخ نوحو في تلك اللحظة، كان يقول إن الغني والفقير يتساوون في القبر كل شخص يستهلك أمتاراً قليلة من القماش، ليس صحيحاً كلام شيخ نوحو إنهم لا يتساوون حتى في القبر.

وكم شبّه »الرميلة« الحي الذي يسكن فيه بهذه المقبرة رميلة رائحة »التفل« مستنقعات المياه الآسنة، والوحول في شوارعها شتاءً، البعوض والذباب صيفاً، بمعالمها الموحشة والعشوائية، لكن لا يوجد فيها ألقاب سوى الطمبرجي. والعتال.. وعمال البلوك.. وعمال التنظيفات وليس تنظيفها هي ، بل تنظيف الأمكنة الأخرى ! . .

نادراً ما تلاقي فيها مهنة غير شاقة، رميلة تدفن الأحلام والأفكار في أزقتها الموحلة.

خلف ورائه المقبرة، نظر إلى العشب الأخضر على حافة السور كان يرتفع مقدار سنتيمترات عن الأرض بسيقانه الفضية، والشمس ترتفع من ناحية الشرق كملكة آسيوية تنثر خصلاتها الذهبية بإهمال.

الجو ربيعي ساحر، الشمس دافئة، قال في داخله ما زال الوقت مبكراً قبل وصول المعلم، سأصل المحل، سحب إلى رئتيه نسمات من الهواء الرطب الممزوج بالندى الصباحي.

جاءه مستو بينما كان شاهو يجلس على كرسي حديدي، يرتشف الشاي من أبريق لا لون له.

- أهلاً يا مصطفى...

الا تود أن تشرب كأساً من الشاي.

فنظر مصطفى إلى الكاسات الملطخة ببقع سوداء..

- رد لا.. لا.. شكراً أنا في عجلة من أمري..
- قال له شاهو: ما هي أخبار الأهل..
- بخير..
- وخالتي »آلو« وتذكر هنا كلام ألو عن أمه بين النساء »يجب أن تتزوج« ما زالت شابة وكان يشعر بغصة وتتكوم كرة من البكاء في حنجرته وهو يتخيل أن تنام أمه في أحضان رجلٍ آخر.
- بخير هي أيضاً، لكنني لم أزرهم منذ مدة أنا مشغول هنا في تحضير الامتحانات، ولدي دورات كثيرة، والعمل الحزبي.
- كل هذا يمنعني من زيارة الأهل والأصدقاء..

- حسناً ماذا تريد أن تخبرني..

إن المنظمة ستقوم برحلة إلى »قلعة جعبر« ومن هناك ستأتي »منظمة الطبقة« وأنتَ مدعو إليها الإتحادي.

قال هذه الكلمة بتعالٍ باعتباره حزبياً وشاهو عضواً في إتحاد الشباب..

كان مستو يقول هذا الكلام دون أن يجلس، خوفاً على ثيابه، وأنهى كلامه الأخير دفعة واحدة.

بينما كان شاهو يتأمل وجهه المسطح الذي لا ينم عن أية موهبة.

- قال بسرور: وهل أرفض هذا؟ على الأقل أرتاح يوماً من عمل »كيركور«.

غادره مزهواً يتمختر في ثيابه الجديدة كديك يظن أنالشمس لاتطلع إلا لأنه يصيح.

في اليوم الثاني أجتمعت ثلة من الشباب والصبايا، بينهم ثلاثة أوأربعة كبار في السن هم من القياديين في التنظيم، بالقرب من النهر، بين الشجر، ثم أنهمكوا في تنظيف المكان من أجل الاحتفال بمناسبة الذكرى الستين لتأسيس الحزب، وبدأوا بأغنية جماعية، ثم توزعت الأغاني عن نيكاراغوا، وتشيلي والمقاومة الفلسطينية، شعر شاهو بغصة في حلقه، إننا أمميين، لكن ما المانع، بأن نغني عن كردستان التي تئن على مرمى أعيننا.

وفي تلك الفترة كانت قد وصلت أخبار مقاومة السجون من دياربكر وغيرها من المدن.

ذاب الجميع في الرقص، راحت الأجساد ترتفع وتنخفض، تلتوي على أنغام الموسيقى، أستمر الرقص، وتمرد على الإيقاع وفي هذا الصخب ألتقت أعينهما.

القتاة التي جذبت انتباه شاهو في هذه اللحظة كانت تستند بظهرها إلى شجرة وتنظر إلى المشاركين في الرقص.

خاطب نفسه: إنها أكثر من جميلة وحدق فيها ملياً، شعرها أسود وقصير وخطه الشيب، ليس عمرا فهي صغيرة,ولا شك أن هذا الشيب وراثيً هذا، ثم تقاطع بصرهما ثانية، أخفضت رأسها بخجل وحدقت في الإرض.

- قال شاهو: لا بد أن أكرر المحاولة-

أبتسم لها، لم تحرك ساكناً، أقترب منها أكثر، حاول أن يكلمها وتراجع عن هذا القرار في اللحظة الأخيرة.

- إنني أعرف إنها تنظر إليَّ، وتتظاهر بالحديث مع الآخرين، والإنشغال عني، عيونها تناديني،أهدابها، خلايا جسدي تلقت كل هذه النداءات، تلوذ بعينيها وتفر من عيني، لكن نظراتنا في عناق عبر المسافة الفاصلة.

ما زال في حيرة من أمره.

- هل حقاً إنها تنظر إليَّ، لم تعد تهمه الحفلة.. ونسمات الربيع، والضجر يركله، يمزقه تلوذ أمنياته بالصمت، تفر من الصخب والموسيقى، ولم يعد يرى أمامه سوى الذي فجر في داخله ينابيع الأمل.

في هذه الدوامة شعر بشيء أشبه بالمخدر في أحساسه وجسده.

في المسابقة تم أختيار تلك الفتاة مع شاب آخر من الفريق »ب« في مجموعة شاهو، أدهشته هذه الصدفة.

- أجل إنها الصدفة.

لملم شتات أفكاره وأحس بالطمأنينة والارتياح.

- الآن أصبحت الظروف مؤاتية لكسر حاجز الخوف، يجب أن أتحرك.

وعند الأسئلة الموجهة لهم، كان يعصر ذهنه ليستحضر الإجابات الصحيحة، وفي النهاية، فازت مجموعة شاهو بالمسابقة وحصل كل واحد منهم على هدية، وهي عبارة عن مجلة »الطريق إلى الاشتراكية« وصورة فوتوغرافية لغيفارا.

أثناء المسابقة كان ينظر إليها بإمعان، عندما تنتقل الأسئلة، إلى فريق »آ« انجرف إليها بانجذاب قاسٍ وكانت أجمل مما يحلم، تتفجر بالأنوثة، أجمل مما رآها للمرة الأولى، أثناء الإجابات كان يقترب منها أكثر، يستنشق أنفاسها وعبيرها الفاغم يكاد يسبب له الدوار، بحجة إنه يشاورها.

لم يعد شاهو يهتم بالاحتفال والآخرين، صديقته في المسابقة، استحوذت على أفكاره، تمنى في داخله، أن يطول هذا اليوم أكثر من قرن، وإلى نهاية العمر.

أصبحت بالنسبة له مركز الكون ولم يستطع أن يقاوم انجذابه الطاغي نحوها فلحق بها إلى ضفة النهر، أقتفى أثرها، ثم أختار مسافة أبعد ليواجهها مباشرةً، وفعل ذلك شعرت بالخجل، جلس على صخرة قريبة وهو يراقبها.

- آه لقد ذهبت إلى النهر.

هذه فرصتك يا شاهو، سألحق بها، وليكن ما يكون.

كان ينظر إلى الأخرين، ويراقب الممر الذي ينزل إلى النهر استغلّ خلاء المكان، وسارع في خطاه، دنا منها أكثر، كانت تغسل وجهها.

قال: مرحباً...

رددّت بحياء:

- أهلاً ونظرت إليه ملياً،في عينيها بحرٌ متلاطم من الأسئلة ,لكنها لم تطرح أي واحدٍ منها.

- أراد أن يختصر الزمن، ويقتحم المسافة الباقية، بجمل سريعة كل شيء فيها يثيره، شفاهها الممتلئة، شعرها القصير، وجنتاها البرونزيتان، نحافتها، مسحة الحزن الخفيفة على وجهها، أنفها الدقيق، عيناها الجميلتان، حاجباها، قامتها المنتصبة.

- أنتِ شديدة الخجل..

عبثت بأصابعها الرفيعة الطويلة، دون أن ترفع رأسها.

- لا ليس دائماً.

شاهو في موقف لا يحسد عليه، يشعر اضطرابا، لكن تلك النظرة الأولى أعطته القوة والأمل وأخرجته من اضطرابه..

أردف يقول: أود أن أعرفك.

عندما رفعت رأسها، توردت خدودها خجلاً، تأملها قليلاً ثم نظر إلى السماء وجدها صافية، ثم استدار بإتجاه القلعة، انعقد لسانه، تعثرت الكلمات والجمل في حنجرته، أبت أن تخرج، تطلع إلى النهر ثانية، وحمل من الأرض حصاة ورماها في الماء، وقبل أن ينسحب بارتباكه، أراد أن يرمي حجراً آخر في النبع الراقد أمامه، وهو يعلم أنه لو باءت محاولته هذه بالفشل ربما لن يلتقي بها ثانيةً، وسيضطر أن يسأل عنها بعض الرفاق، وهذا مالا يحبذه.

تجرأ وخاطبها: أنتِ في غاية الجمال.

جاوبته: دون أن تنظر إليه..

- أشكرك.

شجعته هذه الكلمة على المضي، بعد أن أستعاد أنفاسه قليلاً وأستقرت ضربات قلبه بعض الشيء.

- اغفري لي فضولي، هل لي أن أعرف أسمكِ؟!!.

إذا أردتِ ذلك.

- قالت ببرود ظاهر أفين.

- هل تعرفين معناه؟.

- بالتأكيد..

- ثم قالت له: إنك تملك ثقافة واسعة..

- لا ليس بالقدر الذي أطمح إليه.

وتوقفت كأنها غير مهتمة به، وتريد أن تنهي الحديث،فسألها مع أنه كان يعرف أنها من عفرين لكنه أراد أن يتكلم معها قدر المستطاع.

وأن يجرها إلى الحديث، سألها.

- من إي بلد أنتِ؟!!.

- عفرين..

- لقد زرتها مدينة جميلة بعكس كوباني بلدتي.

جاملته...

وقالت: كوباني جميلة بناسها..

- أشكرك أنتِ لطيفة جداً، أود أن نلتقي ثانيةً.

وهو يتمسك بالأمل الذي يقف على كلمة منها، ويرغب أن يضمها ويفاجئها، أحُبكِ.

لكنه لم يستطع ذلك.

جلس امامها وهو يحدق فيها.. وقفت بدورها، وخرجت من الماء بدا بنطالها مبلولاً إلى الركبة، لونه مختلف وهوأكثر غماقة، وحدقت فيه،كان يبدو لها غريباً في تصرفاته بعض الشيء كرر سؤاله، بصيغة أخرى..

- أود أن نلتقي قالها برجاء.

أبتسمت

- أتركها للصدفة..

- لا لا أرجوكِ، أقترب منها أكثر كادت أنفاسه تصل إلى وجهها.

- قالت: أبتعد، لا تفضحنا، فالرفاق قريبون.

فهمس بصوت خافت:

- وهل الحب فضيحة؟!

ضحكت ووضعت يديها في جيب بنطالها، بدت سيقانها متناسقة، ثم صعد بنظره إلى الأعلى، تكويرة نهديها وحجمهما وقميصها الأسود الذي يعطي عمقاً أكثر للوجه.

أحسّ لوهلةٍ أنه كان متهوراً، فشعر بالخجل من غبائه وتصرفه الطائش،ولكن بعد أن أخذ أسم المدرسة التي تتعلّم فيها، شعر كأنه حصل على المستحيل. وامتلك العالم برمته.

أستودعها قائلاً: أشكرك أشكرك إلى اللقاء.

لم تتفوه أفين بكلمة.

وقفت برهة وتطلعت إلى الشمس التي كانت ستجنح بعد قليل خلف التلال البعيدة، هبت أنسام عليلة، قبل أن يركبوا حافلاتهم عائدين من حيث أتو..

أقترب شاهو منها، وبصوت أقرب إلى الهمس..

قال: لا تنسي سأتي لأراك..

قالت: أفين بأدب جم:

- سأنتظرك.

- هتف في داخله، رائع : إنها تنتظرني، لا بد أنها تبادلني نفس الشعور، وإلا لما قالت: هذا..

بين الحلم واليقظة، أراد أن يخر ساجداً على ركبتيه أمام آلهة حلمه، وفي طريق العودة لم يأبه بأعمدة الكهرباء التي تجري إلى الخلف والتلال، ولا بالمساحات الخضراء وتنثر معها المساء للبوح بداخل شاهو المشتتة الجذلى، وشعر للمرة الأولى برغبة جارفة في أن يصرخ للعالم بأجمعه، أنه يحب، وحتى »مستو« أبن قريته تمنى أن يعانقه في هذه اللحظة.

ولا لشيء تداعت أفكاره، تذكر الأستاذ والرحلة إلى »عين عروس« والحلم الذي يزوره بين فترة وأخرى، حلم الأوتاد.

والصراع العشائري، في بلدته، والنكات المتبادلة بين الشيخان والكيتكان، والثأر، ومواسم القطن، وحداتو التي كبرت معه ومضافة »زيتو« كوباني لياليها، و (الجيكه[13]) والأزقة.

أعاد صياغة كلامه مع أفين.. ماذا قالت؟ للمرة الألف، كيف أغلقت عينيها؟ بأهدابها الطويلة.

كان مغزل هذه الواقعة الجميلة، ينسج وجعاً لذيذاً منحدراً في كل جسده وأحاسيسه، كان فرحاً مسروراً وهو يدخل إلى البيت، ركض إلى أمه قبل يديها.

قفز، صرخ غنى بصوته الناشز، تقلب في فراشه كثيراً، لم يغمض له جفن، تمرغ على كفن الفراش الأبيض، الابتهاج والاضطراب أمتزجا معاً في وعاء قلبه.

وهو يخطط لذهابه للإلتقاء بها..

- لن أرتبك مثل اليوم- لا..

بينما راحت أفكاره، ترسم لوحات، جميلة للقاء، وكلمات أجمل، وغفى على حلم جميل وهو يعانقها.

* * *

أنكب شاهو على الدراسة والتثقيف الذاتي، وأنضم إلى الحلقات الماركسية التي ينظمها، إتحاد الشباب الديمقراطي في مدينة الرقة وجد في الحزب الشيوعي الحل في إزالة التناقض القومي والصراع الطبقي وفي تلك الأثناء كان النقاش يحتدم كثيراً عن اليسار والحركة الكردية التي كانت تشهد تصاعد وتيرة العمل الثوري نوعياً في أجزائها الثلاثة معاً، تحدثوا في ندوتهم الأخيرة، عن أمور كثيرةٍ، الكومونة، وبيان عصبة الشيوعيين، وصولاً إلى التطورات التي يشهدها المعسكر الشرقي، والشرق الأوسط، بدأ هو بإدارة دفة الحوار وأحس بأن هذه الأحداث تندلق طازجة على مائدة النقاش.

وتثقل الفكر والروح، خرج من الإجتماع مرهقاً...

صار في شارع »تل أبيض« يتأمل وجوه المارة القليلين، والأضواء الباهتة، وقف فوق الجسر اتكأ على الحاجز الحديدي، ونظر إلى مياه المطحنة الضحلة دونما هدف، شعر بالغثيان، وبخطى متثاقلة إتجه إلى البيت، تراوده الأفكار، الغصة سدّت بطبقة من الإسمنت حلقه، هل هذا هو الحب؟!! الذي يسمونه الحب، لسعني في شراييني جاعلاً منها شوارع تزدحم بالمارة في ارتباك يهربون، يختفون ، ثم يظهرون، هذا يشبه قتال الشوارع الذي سيخوضه شاهو وهو يجهل قوانينه.

بعد أن اعترفت بحبي لها، ارتفعت عن الأرض، والناس من تحتِ يبقون أقزاماً، ارتفعت بقامتها هي أيضاً حتى عانقنا السحب نزحت اللحظة، غبار الأحزان المتراكمة في داخله، أولاً ثم الجدران و حلم الأوتاد ولفتها زوبعة تغوص في تضاريس الأرض بقوة، قذفت بكل شيء من داخله، وجعلت من شاهو شخصاً آخر، ولم تعد تنبعث من أمانيه رائحة الحزن، تعمق كثيراً في الفلسفة واللاهوت، الأسطورة تجذبه بقوة إلى عالمها المسحور، كان مستو يسخر منه وينابيه بالأسطورة، لكثرة تعلقه بها والحديث عنها دون ملل.

يتوقف أوقاتاً طويلة أمام واجهة مكتبة السلام وهو يلتهم العناوين المعروضة، يدخر ثمنها ويقتنيها، والكتب الغير موجودة يرسل عناوينها إلى دمشق لجلبها، ازداد شغفاً بالمطالعة، حتى غدا لديه مكتبة جميلة وكبيرة بالنسبة لعمره، من روايات عالمية وكراريس ماركسية، وبعض الكتب في المثيولوجيا.

[13] - الجيكه: الكبة النية.

يعود من عمله في الصناعة يتفقد كتبه، يجلس ساعات بين أوراقه يقرأ بنهم، وشعر بانقلاب وغبطة كبيرين، بعد أن نشرت مجلة حزبية قصيدة له لكنه صار هدفاً لسخرية مستو اللاذعة، صار ينعته بالشاعر الأسطورة.

وكان يقول: لو أحب مستو فتاة رائعة مثل أفين، ربما يغدو هو الآخر شاعراً وكاتبا، لكن من أين له أن يحب فهو لا يؤمن حتى بوجود هذه الكلمة...

بينما كان يسبح في أحلامه، وكانت الكتب مبعثرة حوله لدرجة الفوضى، نادت أمه عليه من خارج الغرفة وهي منهكة بإعداد الطعام.

- يا ولدي إنك تذهب ، إلى العمل وتعود متأخراً، فإننا كدنا لا نراك أفي يوم عطلتك لا تشاركنا الجلوس...

كأنه لم يسمع...

- هب شاهو.. لماذا لا ترد؟!!!..
- نعم ماذا يا أمي...ريثما أنتهي من قراءة هذه الصفحات..

دخلت أمه عليه غاضبة..

- ستفقد بصرك بهذه الكتب الملعونة..
- ماذا تريدين يا أمي؟
- يا ولدي أبتعد عن هذه الكتب، لا أريد منك شيئاً..
- ماذا في الكتب؟ قالها بضجر ورمى الكتاب بانفعال..

ثم ندم على ذلك التصرف.

- ماذا في الكتب..؟!
- قال أخاك بوزان: إنك" شوعي"، والشيوعيين كفار

ولا أريد الكفار في بيتي، وكتب الزناديق لا تجلب إلا النحس هل تفهم.؟!

- نعم يا أمي.. أفهم هذا اقسم بالله لستُ شيوعياً ولا أعرفهم،و...
- يا بني أفعل إي شيء تريد، لكن ابتعد عن السياسة فهي خطيرة إن خالك أحمد سجن بسببها خمس سنوات، وبعد خروجه أصبح إنساناً أخر....
- خالك...خالك.... ألا تملين من هذا الحديث، كلما رأيتني تقولين خالك..

إذا سأله أحد ما ماذا فعلت بنفسك.

-يقول السياسة رداء من نار إن ارتديته، احترقت، وبدونه أنت عارٍ.

خطرت بذهنه فكرة عندما نظر إلى كتاب انجلس الملقى بجانبه وعلى الغلاف صورته بلحيته الكثة الطويلة، حمل الكتاب وضرب بكفه عليه، أقسم بحياة هذا الشيخ الجليل لست شيوعياً، هنا صدقت أمه ماتقوه به.. عند هذا استدار، وابتسم لسذاجة الأم، وخرجت الأم متأففة، بينما شاهو يقوم بكل التحضيرات في مخيلته من أجل الذهاب، إلى أفين.

***

خرج من الشارع العام، المتصل بطريق فرعي يؤدي إلى حديقة »كرين« اليتيمة، في مدينة الطبقة، جلس على كرسي خشبي، نثر رماد سيجارته، وطاغوت الإنتظار يترصده، كان ذلك يوماً خريفياً جميلاً،رغم تساقط أوراق الشجر وبذلك تتم دورة الفصول مع برودة الطقس،

رغم وجود الناس والشجر، أحس بأنها الحواء التي يبحث عنها وألتقاها، بعد طردهم من الجنة، كانت تلبس بنطالاً من الجينز، وقميصاً خاكياً، ينساب بتكاسل على صدرها، ومعطفاً أسود ، لملمت أكمامه بعناية، وهي قادمة بملامحها التي تنبئك بالفطنة والذكاء.

قام من مكانه، وسار بإتجاهها خطوات، أضطرب في مشيته، وأحس بثقل في قدميه، كاد قلبه يتوقف.

أهلاً.. أهلاً.. بكِ

- ردت أفين بابتسامة، يجب أن أرحب بك أنا..

وشد على أناملها برشاقة.

-المهم أن نرحب ببعضنا.

فدخلت قشعريرة لذيذة إلى جسده، أراد أن يجذبها إلى صدره ويحضنها لكنه لم يفعل.. جلس بقربها وهو يحدق فيها، دون أن يتكلم..

- ما بالك تنظر إلي هكذا؟!..
- لا شيء أريد أن أرتوي منك.
- وهل تجدني نبعاً؟..

ضحك..

- أنتِ نهرٌ، لكن من الحنان.
- إنني مشتاقة إليك، وأفتقدك أكثر ولكن قريباً سنرتاح من هذه المعاناة، سأسجل في المعهد في الرقة وسأكون قريبة منك، قال لي أبي لماذا لا تذهبين إلى حلب، فتحججت، بأنني لا أستطيع الابتعاد عنهم، ولأني أحتاج إليك يا أبي وأشارت إلى شاهو.
- هل تعلمين ماذا أريد؟
- ماذا؟
- أريدك بداخلي.. أجل أريدك بداخلي.
- إليك هذه المفاجأة الثانية سأذهب معك اليوم.

أمسكها من وجهها ودنا بفمه منه.. أبعدته.

وقالت: ماذا تفعل؟ فعلاً أنت مجنون، أستقبلني في حديقة عامة؟

- أردت.. أن أقول مدى سعادتي وأعبر عن فرحي، هذا اليوم.
- ماذا هل تظن ذلك؟
- ولم لا...
- من الآن أقول لك: لن أبقى معك أكثر من ساعة بعد وصولنا.. ومن هناك ستوصلني إلى بيت خالتي.
- أنتم دائماً هكذا أهل عفرين تميلون إلى خالاتكم أكثر من أعمامكم..
- وأنتَ ماذا يهمك، ألا تتحرر قليلاً من هذه الإقليمية.
- إذاً هيا لا أريد أن أهدر وقتاً أكثر، سأستضيفك في أقليم القلب، وأمسكها من يدها..

ومشيا معاً.. نحو مكان الحافلات.. جلسا معاً كانت الحافلة مكتظة بالركاب.

- لِمَ الوقت يمضي سريعاً معك أفين، أتمنى أن لا يتوقف بنا الطريق إلى مالا نهاية،
- لا أريد أن ينتهي كل هذا الحب في هذا المكان الخانق.

بعد أن تحركت بهم الحافلة، وضعت رأسها على كتفه، فعبث بشعرها ومسد وجهها بحنان.

- إي قدرٍ رماك إلي، ولم تحدثيني مرةً كيف انتقلت من عفرين إلى الطبقة.
- لا أتذكر جيداً كنت صغيرةً آنذاك، دخل والدي إلى الغرفة التي هي للضيوف والنوم والطعام معاً وبلهجةٍ أمرة نادى على أمي..
- ميران .. ميران.. احزمي الأغراض ستأتي السيارة بعد الظهر وسنرحل، وكانت أمي في حيرةٍ من أمرها، فتنهدت بانفعال مكبوت وهي لا تعرف بماذا تجاوبه.
- لم أخبر أمي بذلك . فغضب بابا ورد عليها.
- وهل سترضعك أمك؟! وبذلك أنهى حديثه.

كان أفراد عائلة آفين ذوي وجوهٍ ذابلة مرهقة، يبحثون عن العطاء بعد اليباس، يبحثون عن الستر والرزق، هاربون من وجه العوز، يحاولون أن يلطموا خده في منطقة أخرى.

أبو نضال كان يتفاءل بالخير، ويضع آخر حجر على جدار أحلامه، التي حشرها كلها في إيجاد العمل الجديد، ليعمل سائقاً في شركة حوض الفرات ويحسن بذلك وضعه المالي.

إنشاء السد بمساعدة الاتحاد السوفيتي أتاح هذا المشروع فرص عمل كبيرة للعمال.

أجتمع الأولاد على هذا الأمر الذي لم يعتادوا عليه وبدا غريباً على مخيلتهم الصغيرة وصاروا يصرخون ويضحكون..

- هه.. هه.. سنركب السيارة.. سنركب السيارة.

وصرخت الأم فيهم أخرسوا.

إلتزم الأطفال الصمت. ميران امرأة تتشبّث بالأرض التي ولدت عليها أحبت قريتها الصغيرة » ق « وبيوتها القليلة المتناثرة هنا وهناك، تنظر إلى الحاكورة تارةً وأخرى إلى الغرفة التي عاشت تحت سقفها شقيت في الأرض، وسقتها، بعرقها، كانت ترعى شجيرات الزيتون كما أولادها،بل إنها كانت تعاقب أولادها، إن آذوا بعض الأغصان أو علقوا أراجيحهم عليها....

كيف ستتخلى عن قريتها!!؟ عن جزء من عمرها وذكرياتها وتذهب إلى مدينة أخر،لا تعرفها ولم تسمع قط بأسمها، والناس هناك يتكلمون بلغة غير لغتهم.

أذرفت الدموع فوق أغراضها، ولثمت جدران الغرفة خلسةً.

أفين الطفلة الثالثة بعد نضال ورشو، تفعل مثلها تبكي لأن الأم تفعل ذلك.

ومن بين الدموع سألت أمها؟.

- ماما.. ماما.. هل سنأخذ كل أغراضنا؟
- نعم يا ماما نعم يا صغيرتي.
- وشيلان وخجى هل سيذهبان معنا؟
- لا يا إمي.
- ومع من سألعب..
- واه.. واه.. أفين ستجدين هناك أصدقاء آخرين.
- لن نترك هنا شجرة الجوز سنأخذها معنا.

حاولت الأم أن تفتك من أسئلة أفين المتلاحقة.

فجاوبتها:

- نعم يا أمي سنأخذها.

عندما تتذكر أفين هذا تضحك بسرها.

جاء الجيران، توافدوا عليهم، وودعوهم بالدعاء والدموع، وأنتقلت بهم السيارة والطريق ، مروا بعفرين المدينة الوديعة الغافية على سفح الجبل ، ترنوا بعيونها إلى الحدود الشمالية، وتركوا ورائهم بحيرات الزيتون تحت أقدام الجبال الضبابية.

وجاءت الأيام كتسبيحة، بين أصابع الزمن واحدة تضرب قفا الأخرى.

قال لها شاهو: اغلقي عينيك ونامي، أريدك هكذا.

هو لا يمل من التحديق في تقاسيم وجهها البريء، ومن سيصدق بأن هذه الأصابع الرقيقة ستضغط على الزناد وتطلق الرصاص وتقضي على حيوات يوماً.

ترقد كحمامة بقربي، و تلتجئ إليَّ بكليتها، شطحت أفكاري كثيراً، وتلاطمت وهي تخرج من رأسي تبحث في الأزقة، وتختار الغرفة، لا أستطيع أن أأخذها إلى البيت، سيجن جنون أمي، ويثور بحري، ويترك ملحه على الصخور التشتت بحثاً عن ملاذ يستر هذه العلاقة.

وأمتزجت الظلال الدبقة مع لزوجة حمراء في خياله.

نزل من الحافلة، ناولها المعطف فأرتدته، وشعر ببرودة كانت السماء ملبدة بالغيوم، تنذر بهطول الغيث.بعد أن أبتعد قليلاً عن محطة الحافلات.

قال لها: سنذهب إلى بيت خالي الذي أنتقل إلى القرية، توقفت وسألته؟

- هذا الذي دخل السجن..
- نعم سبق وأن حدثتك عنه، أحياناً كثيرة أذهب إلى هناك للقراءة وأشعر بالهدوء والسكينة، ونقلتُ مجموعة من كتبي إلى هناك، وسنشرب »المتة« معاً.
- آه حسناً، أنتَ أدرى بذلك..
- بإمكانكِ أن تأخذي أي كتاب تشائين..
- هل لديك »لمن تقرع الأجراس «..
- نعم.. لدي..
- سأخذ هذا الكتاب.
- قال باسماً: شاهو وحياة شاهو والمكتبة كلهم رهن إشارتك.

كان يفكر ، ويتمنى أن لا تكون »عواش الأرملة« في باب دكانها، لأنها تراقب كل حركة في الشارع، وتغزل آلاف الحكايا من لا شيء.. كيف وإذا شاهدت فتاة مع شاهو.

نظر إلى الشارع لم يكن هناك سوى بعض الأولاد.

قال لها: أسرعي يجب أن ندخل قبل أن يرانا أحد..

دخلا معاً إلى غرفة المكتبة، الجدران شاحبة، ثلاث لوحات معلقة بتسلسل على شكل درجات، زوج من الكنبات القديمة، يتوسط الغرفة طاولة صغيرة عليها بعض الأوراق ومنفضة سجائر أقترب منها شاهو أحاط وجهها بكفيه، وخاطبها بهمس شديد.

- آه أفين كم أحبك..

ثم أرتفع صوته قليلاً

- أفين أنتِ أنعم من الحرير، وأشد حرارة من الشمس، وتفعلين في الرأس مالا يستطيع نهر من الخمر فعله.
- آه لا تقل هذا..
- إنكَ تثملني برحيق كلماتك، إن عيوني تريد أن تبكي كلماتك، التي تمنحني إياها، أيها الشاعر، ماذا سأعطيك، كلمات سقطت منك.. أعيدها إليك، من فمي لتمسح على يديك..

كنت أراك في وقت متأخر من الليل، تستيقظ يداك لتحضنني، فعانقها شاهو بقوة وكأنه يعصر نهديها على صدره..

ألتصقا ببعضهما وكان كل واحد منهما يسمع دقات قلب الآخر.. والأنفاس اللاهبة تسقط على عنقيهما.

قال لها: لقد تركت الثرثرة والتنهدات ورائي هذا اليوم..

وأياماً ضريرة لا تبصر المستقبل إلا بين يديك، وجئت أصغي إلى تراتيل الجسد، لألثم الحبق في شفتيك.

لن أتلو القصائد أنتِ القصيدة التي سأكتبها، لكن الورق سيكون جسدك والقلم شفاهي، أنتِ حبي الواحد الأحد.

- أواه لا تحدثني هكذا، شفاهك التي تنطق بهذه الكلمات تدخل الرعشة إلى روحي.

نظراتها المليئة شهوة وإصراراً تخترقان روح شاهو الهشة وشعر بشيء أقوى من الشعر في كلامها.

- كنت أعريها حتى من أصغر قطعة ثياب بعيني، حركاتها، ضحكتها، أحرقتني، كيف أغفر لنفسي، عدم مراقبتها بأصغر حركة في جسدها وأدق التفاصيل.

كان جسمها أبيض بض وهي تتعرى أمامه، كانت الحلمتان الضاربتان إلى الحمرة تتقشان رخام الصدر ، مددت يدي بلهفة لم أستطع أن أتحمل أكثر.

- أتمنى أن أمضغ كل قطعة من جسدك، لأنني أريدك بداخلي.
- وأنا أيضاً أريدك بداخلي.... بداخلي.

- ويداي تفعلان في أزرارها وترفعان عن قدسية النهد رداء الطهارة وأحياناً أتساءل لماذا لا يتحد الذكر والأنثى في جسدٍ واحد، كانت الشهوة تموء في جسدي كقطة أمام اللحم وجسدها قادر على إيقاظ الآلهة وان تهوي الكواكب في حضني.

تحافظ على عذريتها، كجوهرة ثمينة لا تريد أن تفتقدها، وتقول في داخلها للمرة الألف أن تمنحني هذه البركة، لأتعمد بها، ولا تستطيع.

- لا أستطيع هذا يا أفين.. أريدك هكذا كما أنتِ..
- لا يا شاهو أنتَ ملكي هذا اليوم، كما أريد أنا، يجب أن تكون..

بدأتُ بإحتضانها وتقبيلها.. في كل جسدها قبلتها من الفم ثم شحمة أذنيها، أنحدرت إلى الرقبة ، ونزلتُ إلى الصرة ولعقتها، والقائم الأعلى من مثلث » فينوس « وأشتعلنا في فصلٍ وثني.

بعد كل هذا الإجتياح اللامعقول، في معقولية جسدي، ونارها تطهر أدنس وأعتم زواياه .

العينان المليئتان بالظلال.

- تقولان: أرجوك لا تذهب لا أتحمل الإبتعاد عنك..

والشفرة الحادة للفراق، أقتربت من العصب الرئيس، الذي يربطك بها، وأنتما تنزفان الوجع ألماً ومطراً..

ما هذا التغير الذي طرأ عليك، مجرد محاولة إخراج نهديك خارج أسوار القميص، كدت تفقدين عقلك..

- لأنك ستهجرني وأنا أريد أن أمنحك، ما لا أريد أن أمنحه لرجلٍ آخر...
- ومن قال لكِ ذلك؟
- إحساسي يخبرني بدنو الفراق..

جسدها العاري يلتف حول جسدي، شفاهنا في معركة جهنمية ، كان رأسي يدور.. يدور، حتى إني قبضت على كلمةمن قاموس علم النفس إنها »مازوكية« تحاول أن تنتقم من جسدي.. في صعودها وهبوطها، رقصت نهديها بجنون وهما يؤديان طقوسهما ، وشعرها المبعثر يرتفع وينخفض مع حركتهما، تغمض عينيها و تفتحهما بشهوانية، أرتفع أنينها حتى صار آهات صارخة.. آه.. آه ه ه ..

أدخلني أنا أريدك بداخلي... آه.. آه أكثر.. أظافرها تأكل لحم كتفي تعضني... أنساح العرق قبلني أكثر.. أي.. أي.. وعندما أصبحت بين فخذيها راكعاً أمارس طقوسي المقدسةو مثل أفعى المعبد أزحف على رخامهما ، او كالمتصوف ،الذي يهتز مرتعد في حركات لا إرادية في إبتهال مشتت من كلمات و إرتعاشات غير مفهومة ، كنت هناك أمارس عبادتي لطروتهما وأقدم لها صلاتي، وأرفع بشفاه إبتهالاتي إلى القبتين المتكورتين فوق صدرها.. تتعرين سماء طلقة، صفحة بحر من أبنوس فستقي، أمد يدي إلى وهجهما، كأنما ألمس ماءً مقدساً، ونارا أخرى، ايتها الأكثر قداسة من دماء القرابين، تسيلين هكذا أمامي، كالفرات، وأحاول أن ألثم موجةً إثر أخرى، تيارك يجرفني بعيداً... بعيداً.

وفي فخذيك رائحة الإشنة المائية والآلهة المخصبة الكبرى، أغوص كما لو أنني أنبش لؤلؤاً من عمقها، أو كما أتلمس الأعمدة المرمرية، في معابد تسكنها التوسلات، افخاذك، كأنها أعمدة من رخام الأدعية، أركع هكذا بينهما، وركبتاي الخشنتان من الصلاة، تنطويان، كما في أي فروض إلهية لأن نذراً آخر سيولد من بياض أفخاذك الزمردية.

أنتقل الأنين والفحيح إلى الجدران والمكتبة، وسقطت الكتب ومائة كلبٍ من الشهوة ينبح في داخلي، وخرجت الشخصيات من بطون التاريخ،انفتحت بعض الكتب ،لتخرج منها الأساطير ، و تمّد ألسنتها الفحمية ، كما أطّل بعض الفلاسفة بأعناقهم المجعدة ، و أعينهم الشهوانية المستفهمه..... وأطل نيتشه و بلزاك برأسيهما .....

ثم خمدت ثورتها، وارتخت ببطء مع شهقة طويلة، وانقلبت بنهديها.. فوق صدري، ارتمت وصدورنا ترتفع وتنخفض بوتيرةٍ واحدة، وذبنا كأقدم زوجين في التاريخ...

كأن الغرفة تغوص إلى العالم السفلي وتصل عشتار، من أجسادنا أدركت، إن مساماتنا توحدت أيضاً، وذوبنا كوناً كاملاً من المحرمات بالنيران المندلعة.

- أشكرك بابا الطويل، إن هذا لشيء جميل.. استمتعتُ معكَ كثيراً..
- بل أنا أشكرك.. إنني أنسى معك الدنيا كلها..

ارتدت قميصها دون أن تحكم أزراره، وهي تدخن وحملقت في صورة »الجوكندا« المعلقة التي تعتليها طبقة خفيفة من الغبار..

بينما كنت أحضر »المتة«.

سألت :

- هل صحيح إن هذه اللوحة أخذت ستة سنوات من عمل (دافنشي)..؟.
- صحيح هكذا يقولون..

لولا حبه وشغفه لما أنجزها، إن الحب وحده يصنع المعجزات، والتضحية وحدها تحمي الخلود من الفناء..

هي نفسها ستضحي دون أن تترك أسمها على القبر..

وأنا في داخلي كنتُ أشكر خالي الذي منحني مفتاح البيت والسعادة معاً وربما الشقاء لاحقاً..

من هذه الغرفة ومثلما يحلو له، إن أرشيف الخال سيغّير حياته و يقلبها رأساً على عقب، وسيبتعد عن هذه المدينة الخجولة بتطورها، آلاف الكيلومترات.

كانت أفين تشعر بالغبطة، عندما تلمس شاهو، فهي تشعر بالدفء والحرارة من أنفاسه، لم تكن تفارق صورتهُ مخيلتها فهو دائم الحضور بين دفتي كتبها، وتزورهُ طيفاً في اليقظة والأحلام.

زرع شاهو أغنية في حقل ثغرها، تردد ذلك اللحن دائماً، حينما ينام القمر، ويرحل المساء، تشتاق إلى لهوه وعبثه، تغلق عينيها لتستلذ بما تتعم به معه في الدقائق المعدودة، من اللقاء.

فكيف إذا كانت معه في هذا اليوم؟!! وهي تُمنح ما تريد من الجسد والروح، وتأخذ ما تشاء بحرية تامة، وفي هذا اليوم عرفت إن للجسد لغته، وكل عضو فيه حرف إن جمعته إلى عضوٍ آخر ولدت مفردة ذات معنى حسي وإيحائي.. عندما تلتقي الشفاه تشهد ميلاد القبلة، والاحتضان يعني التوحد...

وهي تسأل نفسها هل هذا هو العشق؟! بل إن هذه الحالة أقوى، إنها الرغبة المجنونة، في داخلها تدفعها للإرتماء في أحضان شاهو لتذوب وتتلاشى، هذه الرعشة تنتابها من قمة رأسها إلى أخمص قدمها.

أحرقوا سجائر كثيرة مع »المتة« كان يتأملها كثيراً وبعمق، وكم أعجبته طريقة وضعها للسيجارة، بين مقدمة الإبهام والسبابة، بينما تنفرد أصابعها الأخرى بتكاسل.

- قالت أفين: إي حب هذا؟ الذي يجعل الساعات أسرع من الدقائق معك..

رد شاهو: لأنني أحبكِ

- وهل تنكر دوري في هذا الحب؟!!

فطبع شاهو قبلة على خدها، ورفع خصلاتٍ من شعرها السابل على جبهتها ..

لا فنحن شريكان، فأنا أقرأ في عينيك هذا الحب، فأنتِ قصيدة ثائرة مشتعلة، لا أبالغ إذا قلتُ إنكِ تشبهيني في كل شيء، وأكثر ما يعجبني فيك البداهة، وتصرفاتك التي تليق بالشباب أكثر من الفتيات، هذا لا يعني إنكِ تفتقرين إلى الأنوثة بل مظهرك الخارجي الهندام وتسريحة شعرك

-

تنهدت أفين وقالت: أتمنى أن أبقى معك أكثر لكي أفهمك كم أتمنى أن تكون معي دائماً، لأفتخر بك أمام صديقاتي، لكني لا أستطيع، إنك تغوص في أعماقي.. أو ربما أنتَ ذاتي، آه يا لهذا اليوم الجميل معك.. إنه أجمل يوم في حياتي..

كلماتكِ تجعلني أبدو ضئيلاً أمامكِ،

ويجب أن تعلمي أن هذا يحدث لي أمامكِ فحسب، وهذا الشعور تملكني للمرة الأولى، مما جعلني أخشاكِ..

- أما زلت تخشاني..

- لا بل أخشى من نفسي عليكِ..

أخذ نفثاً من سيجارته، جذبها إلى حضنه.

- من أكون أمام فتاة مثلك، وفوق هذا تملكين حساً مرهف، وتستطيعين بجمالك أن تأسري أي رجل مهما كان شأنه . .

أجابته أفين: ما فائدة هذا الكلام.. أنا أعرفك ومقتنعة جداً بهذه العلاقة، ولا أريد أن أفرط بها أبداً..

وكأنهما كانا يريدون أن ينتقموا من الزمن، ليأخذوا أكبر وقت منه.

مد شاهو أصابعه إلى صدرهاوحل آخر زر من أزرار قميصها، ما عادت الكلمات تبدر من الأثنين، فالجسد كفيل بذلك، وكره شاهو الرسالات الدينية التي تحتقر الجسد ولا تقدسه، وعندما تلتقي الأصابع والشفاه، يتحول الجسدان جسداً واحداً، اللسان يصوم الكلام، ويبدو أمياً، والجسد يتقن كل اللغات، لذا يختار أكثر المفردات إثارةً.

أرتفعت دقات القلب، فارت الدماء وألتهبت نيراناً تريد أن تحرق الجسد وتمحيه من الوجود، رغم رطوبة الغرفة، أنساحت حبيبات العرق وتركت أثرها على الأريكة، دارت فيهم الغرفة ثانيةً وتوقفت مع إنطفاء تأوهاتهم.

- إنني أحبك بكل صدق

قالتها أفين: كان هذا مسلياً وممتعاً للمرة الثانية؟!!

وهي تلتقط أنفاسها.

ورمت برأسها على صدر شاهو وقالت:

- لم أشعر بمثل هذه اللذة من قبل..

قامت من مكانها.. وحملت بنطالها وهي تسرع في إرتدائه..

و قالت: يجب أن أذهب.. تأخرت، فحضنها وهي على عتبة الباب وتبادلا القبل..

- أرجو أن لا نلتقي كثيراً إلى أن تهدأ الشبهات التي تحيط بنا، لأن رفيقنا »مستو« أثار زوبعة بين الرفاق..

- آلـ... أراد أن يشتمه، وضعت سبابتها على فمه..

- وقالت: إياك يا حبيبي لا أبه به فليفعل ما يشاء.

قال شاهو بلهفة لا أستطيع الإبتعاد عنكِ..

- إنك دائماً تتحدث عن الإرادة، فلنختبر إرادتنا معاً..

وقبل أن تهم بالخروج، وهي واقفة بالباب..

- قالت مبتسمة: حل وإغلاق أزرار القميص أصبح له معنى آخر وأستدارت وخرجا معاً بعد أن أغلقا الباب.

* * *

-3-
ترانيم الهواء

[5]

أي عزاء أقدمه لنفسي، وجدران الألم تطبق على روحي.

ما هي الأدراج المسلية؟!!! التي يمنحها الجسد للروح، أحياناً يحس المرء أنه لا قيمة للجسد أيضاً، لأنه خارج المطلق، البرد والألم ينخر في الجسد أيضاً، لأنه خارج المطلق، البرد والألم ينحسر في الجسد كدودة تعزف لحن بقائها، في الفناء، الخواء مطلق وهلامي لا أبعاد له، إنه الرماد، رماد التبغ الغير قابل للإشتعال، وأي معتوه يرى الشمس حورية، تستحم في البحر، والدمع رملٌ ينزلق على خدود الشاطئ، والعمر شجرة تتدلى، بين الحياة والموت، تسند أغصانها بأصابع شمعية تذوب بالآمال وتقول: »إذاً عليَّ أن ألتهم ما بقي من العمر« والعمر غزالةٌ تمضي سريعاً، الحمى تجتاحه بقوة، لم يكن يستطيع البكاء أكثر، والألم يقطّع شراييه ، ومضت بذكرته فكرةً قديمة : إن كانت أغلب العاهات بشعة مفزعة، فثمة عاهات مغرية كالغباء للخلاص من داء الفهم، الذي هو محنة العاقل.

آه لو كنت أعمى إذن لأسترحتُ من رؤية هذا العالم، الذي يدفعني للهرب.

- رسم العالم، هذا هو الهاجس الآن، حتى وأنا أتناول ما يسمى بالطعام، رحت أتخيّل ما سأرسمه، لم أعد أهتم إلا بهذا المشروع، ولست أدري ما الذي أجنيه من وراء هذا الجهد!..

- العالم، فكرة منصبة في السفح الممطر!! هذيان ألوان، أخبار، أسباب ونتائج، بيع وشراء، وعقود ودماء، سأقف بدل مالك الحزين، فوق المدخنة وعلى ساق واحدة، وعندما أتعب تماماً، لن يكون لدى مالك الحزين ما يدفعه، سوى السخرية.

ينقل ثقله من ساق لأخرى، وينظر إليّ، ثم ينقر بلامبالاة وكأنني غير موجود!...

هكذا هي الحياة، وأنا غير موجود.. هي تترك الخيط بين يدي، وأنا لا أدري.. كيف سأبدأ ومن أين سأبدأ، هل أرسم مالك الحزين الساخر، الذي يقف في الأعلى ولا يريد أن ينظر إلى تحت، لأنه سبق له ورأى كل شيء، كل السخافة كل الرخام، كل سعي فارغ، وكل تصنّع غرائبي، وكل أهمية المسير بإتجاه واحد، إلى نفس النقطة المذهلة، العدم!..

يزرق الآن.. وهو يحك ساقاً بأخرى، ومن بعيد، يبدو كأنه الملك، يفرد جناحيه ثم يكتشف أنه لم يُكمل إفطاره.

للحظة، أشعر بعدم ضرورة الاستمرار بذلك بشيء، الذي يبدو لي قسرياً الآن- محاولة رسم العالم، رغم ذلك أتابع، إنما ببطء، كما يُعرض شريط سينمائي لجريمة غامضة أمام المحققين، ببطء، بطء أكثر، ورويّة شديدة، اتناول الألوان، وأمد يدي إلى فرشاةصغيرة، وأحدّق في بياض القماش المنتصب بقسوة أمامي، وكأن نجماً سيبزغ فجأة من هناك، أو من الأفكار المتصببة بسرعة لا يخفف غلوائها العرض البطيء والقطع، كأنما بمشرط حاد، لأن عواطفي تسيل الآن كأنها مدلوقة من صفيحةٍ، وأميّز البغض لبراءة الأبيض الفجّة في القماش المشدود، وكم من التسطحّ، والبلاهة في الظن الطيّب، وسط خبث العالم وأنانيته!!

كان يرسم هذه اللوحة على جدار السجن الذي يفصله عن النور بعينيه.

- وبما أن أرقاماً فلكية كبرى لا يمكنها أن تقدم مقارنة واقعية بين بغضي البسيط للغباء والعنصرية، وكميّة الحقد الهائلة الموجودة في العالم، فإن الحيرة والأصفاد تغلّ يدي، ولا أرى شكلاً معبراً أكثر من هرم فولاذي لامع مقلوب يغوص عميقاً في قلب العصفور، قبل أن أمدّ فرشاتي لترسم اللمعان الدموي للرأس المدبب للهرم الثقيل!.. بينما يبزغ تابوت أسود كأنما من

وسط ذاكرة ضبابية وينزلق بعيداً بعيداً، في الأفق الرمادي لجميع الأخيلة التي راحت تتراقص أمامي في اللوحة المقبلة..

بياض اللوحة صار سفحاً يابساً، وأنا أرشق خطوطاً عديمة اللون، هنا وهناك.

خالية من أي ليونة، كأنني أصبّ كومة من الأفاعي في روح طفل.

وما بالي أرى في اللوحة جرح وطني في خاصرة آسيا، ينزف دون أن يشعر به الجسد وينظر إلى خاصرته لا مبالياً، بلد الأنفالات والهجرة وكم الأفواه، والإغتيالات، والقيادات و الأفكارو الجميع موثوقون إلى كراسيهم بحبالٍ فولاذية، والأحزابٌ المشطورة ضد بعضها البعض، تطل برؤوسها على أشلاء هذا الجسد.

وتراءى في خيالي ذلك الحلم الذي يرافقني أرى فتاة متجسدة بكل أنوثتها إلى أوتادها وتتشكل تحتها خارطة الدماء يغرق فيها كل شعبي وتتلاطم الأمواج ثم ترتفع لتخفيهم واحداً تلو الأخر، وكانت هذه الخارطة مسيجة بالأسلاك الشائكة من جهاتها الستة.

أتوقف لاهثاً عن رشق الأفكار المتراكضة كأنما من قفص عفاريت فتح فجأةً، حتى أنفاسي صارت كأنهارغوة جنازة.

هل هذا هو العالم، أم شعوري الشخصي اللحظي المتعصب ضد العالم؟!.. أليس كل لون على لوحتي، مجرد إنفعال آني، وحالة نفسية؟!.. هل أرسم ذاتي؟!..

وهل صار القماش الأبيض مرآتي التي أريد أن أرى نفسي عليها؟!.. وانفتح ضوء فجائي كوميض خاطف، ثم أنطفأ بلحظة، كأنما شيء ما في اللوحة يوحي بلفحات العتم، الظلام الأسود الحالك ينفخ هناك، ولم أكن بحاجة إلا لرسم خط على الجدار لينفتح كالمشيمة ويندلق منه فجر أصفر كمخاط الكارديان.

لم أكن متيقناً أنني رسمت كل هذا، وأنا أنظر إلى نفسي أسير وسط اللوحة ملطخاً بالبكاء ودموع العجز تبللني تماماً، وأمسح بأكمامي جرح فراشة كان يشع في زاوية الصورة، لتطير من جديد، فراشة من الحديد الصدئ، تطلع من عمق روح بلا حبّ، بلا قطرة حنان، ومنذ زمن سحيق لم تمسح رأسها أصابع عطف!!..

كأني مسحتُ أيضاً قلب العصفور المطعون، وحللتُ وثاق عدول، لكن رائحة الجرح ما زالت تسطع، والأشعة خفافيش من غيمة سوداء أطبقت تماماً على السفح، والفرشاة تقرقع على القماش، كأنها تحطم الألوان، وفجأةً تحطمت كوة في الجدار وتناثرت على الأرض ملوثة بألوان جارحة، كدمامل حيّة، أو جثث عصافير زرقاء ماتت خنقاً!!..

أفلتت الفرشاة، وسقطت عبر الفراغ برنين، ومال السفح في اللوحة ليصبح منحدراً ثم هوّة فاغرة تلتهم كل شيء، ولم يكن بيدي أي سلاح إلا الألوان، ووجدتُ نفسي أتراجع خطوة قبل أن أرشقها في وجه الهوة، التي رأيتها الآن طفولتي وقد تلوثت بكل معرفة وكل تجربة ممكنة في هذا العالم!!..

وبكل عذابات الفراق والحب، والحرب وأفين، وبحيرة الحرية التي كانت تسبح فيها أسماك أحلامي.

واكتشفتُ- بعد فوات الأوان، أقصد بعد أن مزقتُ اللوحة بأظافري وجدتُ تحت يدي صورة العالم السوداء، وإدراك عدم البشرية في ظل محاولتنا الأنانية الدائبة لإخضاعه، كل هذا، جعل بعض اللمحات الحلوة من ذكريات طفولتنا، بالوعة قذرة لأمالنا.

الآن بما أن الألوان أستعصت عليَّ في المحاولات السابقة، فقد نظّفتُ خيالي منها، وحتى المكان كلّه، ووجدتُ مكاناً واسعاً، يليق بفضاء نفسي، وإنطلاق يدي، ونصبت القماش أمامي خارج أسوار السجن، وبالحبر وحده.. وريشة طازجة، وكمية لا بأس بها من الإستعداد الملائم، سأعاود محاولة رسم العالم.

وبما أننا بلغنا تطوراً رياضياً جديراً، فربما تكون الأشكال الهندسية المنتظمة قادرة على تقديم تصوّر معقول لعالمنا، رغم أني أستبعد المربع، بأضلاعه المتساوية، فلا شيء في هذا العالم يرتبط مع الآخر بتساوٍ، وكل شكل من أشكال الوجود يرى نفسه الأكبر والأفضل وهكذا تنتفي أيضاً فكرة المثلث المتساوي الساقين أو الأضلاع، أما الدائرة فممكن لها أن تقول شيئاً من خلال تدوّرها اللانهائي والتفافها الأناني على نفسها لكنّها تبدو –من ناحية أخرى- وكأنها تخنق نفسها بتلك الأنانية المفرطة..!!.

وهكذا سيكون المربع محطماً وغير منتظم ، إحدى زواياه قد أفلتت من مكانها، والباقيات مهشمات كأنما بضربات متعمدة من مطرقة ثقيلة، أما الدائرة فستكون مفتوحة بلا نهاية، وتبدأ من لولبة ناخرة، كأنها آتية من دخان وذاهبة إلى فراغ!..

هي الصرخة الأولى وتكويرة الفم في الفم، وأستدارة النهد، الشهقة الأخيرة، والقماط والكفن. ونقطة البداية هي النهاية.

من يعقد قران الألوان ببياض القماش؟!.. الكلُّ –حتى يدي- يهربون من هذا القران!..

صورة العالم كما أراه كأنه كفر، ينفر منه الكفرة قبل المؤمنون ، ورغم القيء أيها العالم المحكوم بالذراع والمسنن أحبك لأن أفين موجودة فيك.

دوائر الصدى ترسم في الأفق الكحلي ترددها، كأنما تُعيد البكارة للماء ، من هناك أرتسم الخط الأول في الإنحناء الشفيف للمدى، وراء الكلمات كما وراء التلول الأصوات، واستدارات أشكال الرعي العتيقة، في مروج الريح، وقطعان الشوق، تتثر أظلاف الحروف البكر، التي مازالت تعود إلى الحلق، كأنها في تزاوج مقدس، لتكمل الدوران الأزلي لمصادر الشبق، الإنسان ذلك الكاهن الخالق في معبد الطبيعة البكر، يُعيد للأشياء استداراتها، ويأخذ الحلمة الأبدية في شفتيه كترنيمة خالقة ويطلع على البياض في أوردة أخرى، وتنزف الكلمات المقدسات أمام الملأ والبحر، وعلى السادن أخيراً أن يضع ذلك اللقاح، في مبايض الزهر، لتتفتح الدوائر في حالة خلق مغلقة،على سر الولادة والعودة، من رحمٍ خرجنا، ونعود إلى ذات الرحم، لم يكن ذلك إلا سرُّ الانحناء، بدأبٍ فوق المائدة الأخيرة، الهابطة من السماء، وآلهة الأفق يفتحون الأقواس الطرية، للزواج المقبل، في خصوبةٍ تفتح اثلام الماء لتصنع البيض المبارك، في فروج السماء وتدخل نحو شمس الجنوب كأفاعٍ خالدة، تحمل استداراتها إلى جنيات الرمل الدافئ.....

أخيراً تخرج كذلك كاهنات الماء، عاريات تماماً، كما كنا أولاً، العري والعودة للعري، والغناء أصواتٌ بكورية، كصراخ حيوان كان يرعى آمناً، وفجأة يشعر أنه محاصر بالأنياب والمخالب، ليصرخ... من عنقه المطعون والمدمى... هكذا يعود الغناء إلى دائرة الصوت، الأول ونقطة البداية، في النزيف الحر لحنجرة مليئة بالتوسل، كأنها أجراس تقرع لحنها المدوي على بكارة الصخور والأشنة الخضراء لماء الغسل الصباحي. إذا فالعري يعود بحنين طاغٍ، وكذلك الغناء والشعر، ومن ذات المضائق الأولى للرغبة والحنين للعودة، تخرج مضائق جديدة دائماً، نعيد الكتابة الجسدية، مباشرة من بداية السطر الأول للخلق، كأننا.... آه، لم نرحل من مكاننا أبداً.

* * *

كانت حبيبات العرق، تنزل من جبهته، ومايزال يرتعد من معاناته في رسم العالم، الذي تجسد أمام عينيه.

خاطبه هتاو معاتباً ومواسياً

-أيعقل هذا؟! إنك تبدو مريضاً جداً.

-لامرض ولا أي شيء آخر، انني فقط، سأحاول أن أسرد لك الحلم الذي رأيته.

قال بصوت خفيض: لاأعرف كيف أستطعت أن أقضي ليلة البارحة.

-أي حلم هذا حدثني عنه، قالها هتاو، برجاء ولهفة.
تنهد بحزن. وقال:
-كنت أسير في طريق تظللها الأشجار من الجانبين، كانت أشبه بالصنوبر، وليست صنوبر، وأوصلني هذا الدرب إلى بناءٍ كبير، مطلي بالأبيض و له نوافذ كثيرة مصبوغة بالأخضر، كان يحرسه أسدان حجريان، ولاأدري لماذا؟ تذكرت في الحلم أسود »شيران، وتذكرت آروش الأرمني. صاحب الجرار عندما كان يوزع علينا السكاكر... بقدر ماكنا نحمل عروق »السوس« من خلف الجرار، وكان يأخذها إلى المدينة.
المهم أنني شعرت بسطوة المكان، وازداد خوفي ورعبي عندما أقتربت أكثر من البوابة، كلما حرك أسدٌ رأسه، يزأر وقاعدته الحجرية الثابتة تمنعه من الوثوب، فزال خوفي عندما شاهدت هذا.
دخلت بعد أن حملتني سبع درجات مرمرية، وهناك شاهدت مصنع روائح الرب: مارأيك بالعنبر والمسك، الفل يطل من الشرفات، تخفق التيجان البيض، كأشرعة مفعمة بالريح، تتيه على موج الأوراق الخضر، والعبق يفيض من حواف الأفق أما الحبق فقد أجتمع قبائل... قبائل، ينافس الزيزفون والزعتر. وما يعلمه الله وحده من الروائح المختلفة، والإضافية.
أما الروائح التي تمكنت حواسي المحدودة من إدراكها، قاطعه هتاو.
-شيء عجيب هذا الحلم لايصدق.
قال شاهو متأففاً:
إنه حلم لماذا لايصدق وهل أنا أهذي؟!!
وأستأنف سرده للحلم :
-أما الروائح فمنها المكورة والمكعبة والمستطيلة والمتشظية والمجعدة والمثناة والمكوية وثمة روائح حمراء، وأخرى صفراء، وخضراء، سماوية ونهدية وبنية والأشد وطأة أني رأيت روائح سوداء، وسمعت بعض الروائح تنشد أغاني القرف، رائحة غادية فيما يشبه المظاهرة.
نظر إلى هتاو الذي بان عليه الإستغراب، وكأنه كان يسأله؟
-لماذا تثور الروائح وماالذي تبغيه؟!!.
أنتظر لحظة قبل أن يجيبه، وارتسمت على محياه إبتسامة
-ياعزيزي يقولون! إنها تطالب بالمساواة الطبقية.
-هو كذلك بالضبط. بمَ يتميز الزنبق عن الثوم والنرجس عن البصل.
قال هتاو منتعشاً:
-وماذا حدث بعد المظاهرة.
-أتسعت حدة الإضراب، لولا أن جنوداً حضروا فحطموا بعض القوارير، وقاموا برشوة أخريات لكسر الإضراب وثم دهس الزهرات المتمردات بالهراوات، هربت أمام جنود الرب مخفياً بعض الياسمين في جيب صدارتي، لكن حارساً مزهواً بنبرته أوقفني بعد التفتيش دفعني بقوة إلى دهليزا آخر في البناء.
توقف عند هذه الجملة وشرد عن نفسه.
قال هتاو:
-هيه أبتعدت عن قصتك بماذا تفكر؟!!
أ..أقصد الحلم.. انني متشوق جداً لسماعه منك حتى النهاية. فعاد شاهو واستأنف حكاية حلمه.
إن الله نفسه لايعلم ماالذي يفعلونه في هذا الطابق خليط عجيب مشعوذون أطباء ومحامون حلاقون نجارون، خياطون، قوادون وعاهرات، راقصو البالية، وتجار القضية، وسمسارة العنصرية، وكان يجلس على الكرسي الشوفينية يضع قدماً على أخرى، وجمعيات السحاق، أتفقت مع الماسونيين لنقل الإيدز إلى البشرية من هذا الطابق.

والآن سأقدم لك شرحاً عن الأسماك في حوض الزجاج يعيش القرش والقريدس أما في المحيط اليساري، فيعيش الضفدع ذو الديدان الصهباء، التي تلوث البيئة بأنفاسٍ ملائكية.
-أعذني كيف يمكنني العودة عن هذه الثرثرة المطاطية؟!!
لماذا نقارن النسمة المرهفة، بالمرأة الفاتكةفي إنقضاضها اللاهث على عنق العاشق العاري؟! كيف يمكن للمخلب أن ينتصر على جناح فراشة سكرى بما تطرحه كؤوس الخمرة، من نشوة طاووسية في خد مراهقة ينتظرها الصبح عارياً على حافة الفجر.
توقف عن الكلام لحظة ونظر شارداً ثانية إلى هتاو.
فبادله النظر بالرثاء ولم يتقوه بكلمة لقد تركه على سجيته ساهياً أو ربما كان محلقاً بالحلم الذي سردَّه شاهو له .
وبدأ شاهو هذيانه ثانيةً وبحماس أكبر :
الفاء سببية لأنها تخلع سراويلها على قارعة الطريق إذا أستدعي الأمر، والواو حرف عطف لأنها تنزل المعطف عن الاسم وتدثر به الاسم المعطوف، وهي فوق هذا وذاك، تتعاطف مع الشتاء فقط فيحمل مظلة.
والتاء تاء التأنيث لأنها تنزع الرداء عن أشد الأشياء أنوثة لتظهر عارية، نسيت أن اشرح : لك عن حروف الجر وكيف تجر ورائها أذيال الخيبة، هنا قاطعه هتاو بحدة.
-وهل تعتقد أننا بحاجة لهذه المحاضرة عن اللغة وماشأن كل هذا بالحلم؟.
شاهو كان يهذي بهذا لإنه يفكر بالعربية ولو فكر بلغة غير العربية لنطق بشيء آخر.
كان يعيش في اللازمن ويترك من دموعه نهراً، يطفو عليه خشب الضياع.
ماعلينا إلا أن نتابع تداعياته، ماهذا الحديث؟!!
إنه يعيد كل البعد عن الإنضباط الذي تعلمه في الثورة وحياة الأنصار وهل هذا يفسر حالة الإنغلاق والرهبنة والحرمان لديه، ليرفع اللجام عن ذهنه الهائج فيعبث في روابي الفكر.
خرج عن الموضوع وأفلت مجذافه من زورق الفكرة. إذا لنتوه معه، والآن إليكم هذه العودة إلى موضوعه الأساسي، ربما يستمد موضوعه من القرش والقريدس، يمتد هذا إلى العماء المائي، وماعلاقة اللغة بالماء؟!! إنها جدلية جريمة (كريستوف كولومبوس) ودعم هذيانه بقاعدة أخرى.
-النور القوي يخفي خلفه عتمة قوية.
وكل وجود تحت الشمس له ظل.
صار عمري (3) مع إضافة الصفر إلى يمين الرقم، آه لقد نسيت، المهم ألا تنسى إضافة الصفر، يكفي إنني الصفر وعندما أبدل مكاني من الشمال إلى اليمين أصبح ذا قيمة، وأحياناً أكون أهم رقم.
بإنزعاج قاطعه هتاو ثانية.
- ياأخي أتركني من أرقامك وأصفارك ومفرداتك وصرفك للغة، سوف أجن من كل هذا!!
- جن مثلما تشاء قالها ببرود.
هتاو كان يتقبل كل هذا الكلام دون أن يحرك ساكناً، مثلما ستفعل أيها القارئ مع هذه الصفحات وإن شئت أشتم الكاتب. لإنه تجرع الإهانة منذ أن كانت هذه الأرض التي تتقاسمها الأحذية العسكرية له وطن مرتبط باوتادٍ أربعة، تقيد حريته.
أفر من المكان الأول إلى المكان الثاني الذي يتمدد في الذاكرة سيلاً من الزمن. أكثر الأشياء بشاعة ومقتاً تصبح رائعة جميلة أتوق إليها، تعاودني الصورة المقدسة الجميلة المدنسة بواقعية المكان، أشتهيها جيلاً كاملاً من العوز والحرمان.
أنت في حالة نزف شديد، أحتاج إلى أكثر الأشياء تناقضاً، وأتوحد بكليتي في الرؤية الكونية لأرسم العالم ولكن هل بإستطاعتك أن تقض بكارة بياض الورق؟!! لاهوت الإلفة ومحراب المكان أرتمي في أحضان نغم، أغرف من بئر الحزن، وأشعر بأن للدموع نكهة حين تتوالد هذه المشاعر.

تتربص بي الذاكرة، لتلصصي على حرمة النسيان، وتلتهب برودة في زاوية الإغتراب وشوارع النفي وتتجسد الأسماء في ماهية كينونتي التشكلية، في وحدة الوجود.

عزيز أسم يلتصق بك وشماً عربياً وينقلك إلى تخوم إيران ومدينة سردشت. وأنا أمتطي بغل المنية، تحاصرني القضبان المحسوسة.

الأسماء مرت عليك، وحجبتك كستارة عن أعين الغبار، وحمزة الذي جعلك تنتقل متقاذفاً متدحرجاً من زاخو إلى جهاتك التي تكونت فكنت هناك سفيراً لاتتقن مراوغة الأمكنة ولعبة المحاباة ومن مرجلة الثورة الفلسطينية إلى رحى جبال كردستان، والحرب الشعبية.

كنت تمتشق قلم الموت وتحفر به حفراً عالية لشجرة الحياة، وأعتقلك من دافعت عنهم بدمك وأشلاء من جسدك.

عدنان أبتليت بك ياأبي وورثتك نطفة هائمة في رحم الوجود المكلل بالعدم.

كوباني كان أسماً يتقدم رتل الأسماء، وحلم صبية معفرة بعذرية حقولها المسيجة بذكورة هلامية مسطحة وعقم الينابيع.

هاهي الأسماء المستعارة في الأدب والأسفار تمسك خناق الذاكرة حتى أنك اقتنعت في النهاية أن كل الأسماء تليق بك وإنك حريٌ بكل الأسماء، المكوية والمجعدة، الذابلة واليانعة، وكل المدن تتبرج لقدومك ياعروسها، ولك فيها المقاهي وواجهات المحلات والأرصفة وعناوين الكتب، وأنت تحوم حول ماتشتهي بجرو عينيك وماذا يعني أن تكون جان 31 في النهاية لترسم شاهو الكائن الحبري النزف وتكسوه لحماً وتحقنه دماً وأنت مطعوناً في شرف الوطنية.

فكيف تخرج من ذاتك ممتطياً أحصنة الغير، حيث تلهث الأيام وتصعد قمم العمر، نسمع لأحلامنا، صوت شحذ مبحوح، هل الصعود مانبغيه، وكيف نخدع أنفسنا بأن القصائد ماهي إلا تخدير لأوجاعنا، وفي عمق أعماقي أتلمس شفاه الجرح، أهي التعاسة أرتديتها معطفاً، لا فالحلم يتكور ويتفتح كزهرة، هذا المدى يشبه ثمرة الكمّثرى، الفجة، وعلى شرفة الوجود تنتشر أودية عميقة يطير من فوقها، سرب القصائد، المدى ذاكرة ملقاة على بيدر الحنين، لعله الكلام والحلم، أجل صخور أحلامي صامتة، هكذا لاتحب التمرد والعصيان، المساء رمادي، ينحني يلتف، ومساء آخر مثله، أية غريزة تدفعني للمشي في أرومة الرواية، كيف أختار الطريق وغباره يعمي البصر، طرق ترتدي قمصان الذاكرة على مفترقها، آه صحيح إن الطرق لاتشرب من كأس النسيان، إنما أحياناً تهرب من الذاكرة.

دروب تؤدي إلى الرذيلة وأخرى إلى الثورة والدم والرصاص.

وطرق تمشط ضفائرها بالشجر، وأنت كنت تزرع الأرصفة بخطوات الصبر، نهارات وليال تحبل بالحزن، يكتسح هذا النسل فيا في العمر، إذا كان دفتري رماد بماذا أكتب؟ وكيف أدخل ذوات الغير.

عندما كنت أخاطب أمرأة ليست من لحم ودم.

كنت أقول لها: لاشيء يموت في هذه الجغرافية تحت أصابعي، التلال والوهاد والأخاديد، عندما أصعد برأس سبابتي قمة ثديك الأيسر العالم يميل، وحينما تستقر شفاهي على ينبوع ثغرك فالكون في استقرار وفي العناق أتوحد، أرتفع... أرتفع عن الأرض، عندما كنت صغيراً في مدرسة العشق، و الآن بدأت المعرفة تدوخني، وكل لحظة اكتشف قادة من الكآبة تسكنون جسدي، ذاكرتي دموية أحمل صلوات الفرح في ديوان الرغبة، والحب اللامتناهي، يفرقني، جان ياتوأمي، ربما تقول: إنه يهذي، لا بل أطارد جسد الهذيان بسوط العقل، أجده متمرداً؟، متطرفاً، حينها تغدو عارياً أيها الجواد الجميل، يخز في جنبيك مهماز اللاوصول، أتألم أنا، تتألم أنت، أنت عنقود خمر أنضجته شمس الحلم، كم هو جميل تسلقنا، بأهداب حبر السماء، وخضرة الماء، ألا ترى أن الخريف يتعرش في داخلنا، وينزف منه موسم الاصفرار، الحقل أصفر، الحلم، القمر، وللقمر شوك أصفر، في اللاوعي، الورود زرقاء، النبيذ، الموانئ الحانة، هاهي الهجرة نحو طريق الحلم

المعبدة بالأزرق، هذا هو لونك النهائي يضيع.... يضيع في عتمة الألوان، الأشرعة بيضاء، القماط، الكفن، سروال صديقتك، الغناء، قلبك، لِمَ جان الأول يلوث مسامات فكرك، بهدهدة الألوان جان الثاني، يمسك لجام الذاكرة إلى نافذة الماضي، تمرغ يحب الألوان متجليات الآتي تقول كل شيء أسود، كيف هذا وهتافات البحّارة زرقاء، والسلالم والأناشيد، والحياة كلها مزج عبثي من الألوان، إنما نحن نفرزها كأصوات الناخبين في الشرق، أيها المسكون بالسقوط، سقطت.. سقطت ولم تصعد هذا الطريق الذي ترك لحمه يتعلق بأقدامك، ومرة أخرى في عتمة الأيام، حناجر الغناء تصهل في براري الذات.

هل تعلم؟! أن عشتار مازالت عذراء، وأنا ضاجعتها خصوبة جان الصفر قال: ذلك، قبل كلكامش كنت خلية وحيدة من »هيولى«تمردت أرادت أن تجعلني سجادة لتمارس طقوس الإنحناء والسقوط، وتقيم الصلوات، او تجعلني فرساً تمتطيني، ومن غير أوجاع، دفنتها تحتي بعقيدة الدموع، روضّت الهائجة ربطتها بوتدي الذكري، لماذا تشطح كثيراً، عد إلى ذاتك، كيف، والنور في الشفاه يذبل، أحصد مع احزان الليالي، خرافة العقيدة.

أشعل قنديل السؤال في صدر الصفيحة، انا البراءة والخطيئة أنا الصمود والفرار، أعرفك لن تهجر غابة القصائد، وطير الكلمة يحلق بجناحيه، عبر غربة الذاكرة، إنها دعوة لتجليات الآتي، التمرغ في سراب الجرح، واللغة ليست غابة فأنا غبي، إنما هي شجرة وثمارها رغبة الأقلام المكسورة، لاتضيع المسافة في فحش الروح، مهد لروحك أن ترتدي الحرية، دالية الروح، تعرش على جدار الفكر، وتوزع الجنون، بين الحياة والعدم، الكلام والمتكلم، أوقظ شجن المدينة بشفق مازوكي، لابدأن التراتيل تعرفك، وتعرفني في التقمص المهاجر، صراخنا في جسد الأفق لاينطفئ، ماذا تجني من كل هذا؟ سوى التفسخ والتضحية.. والتضحية وهل لديك درب آخر تتعرج منه، الظلال المقدسة؟ كل نيران البراكين تتفجر في قلبي، لكنها زرقاء مثل أحلامي لاتحرق إلا لون السماء، والماء كم أشتاق إلى المقهى، إلى النهر، أيها الأحمق لماذا لاتقاسمني رغيف الحزن والقهر، أنت خائف أيها المرمم بالخوف والحزن، فكر، إشرب، شاركني بمشروع الذاكرة والنسيان، فهذا نكاح سرمدي، لاتصمت ياروحي، أشعر ببرد وقشعريرة تنتابني، من الآتي، علبة التبغ، فنجان القهوة، القنابل، الرصاص، الدم، الجبال تحاصرني يأكلون ويشربون معي، نخب الهزيمة، على مساحة المائدة، هذا إذا وجدت مائدة في كوخي الأحقر مني، أصلي صلاة أمي، وأبي وصلاة الكلاب والخنازير، ولا أجد تفسيراً لقهقهات الحياة التي تتلف أعصابي، أعقاب السجائر، الشارع المذبوح، الأرصفة جسد فقد لحمه وبقيت العظام.

أتكئ إلى جذع شجرة، اعود ثانية إلى دخاني الرديء، أغمض عيني، الأقدام، الأصوات هجرت المدينة، وجوفي يملؤه الضجيج والصراخ، كل شيء موحش، أحبك ياأنا أكرهك ياأنا أقدسك ياأنا أدنسك ياأنا.

رقص، جنون لجسد الفراغ، لاحاجة للنافذة، تسيل الأصابع من فراغ القلب، انت وحيد، تعيش في فراغي، اعيش في فراغك المته المنقوعة-ألا تثيرك في هذه الأيام إنها ويسكي الفقراء، أرفع براقع الحشمة عن صالة العقل، الياة جميلة ولماذا الحياة أنثى ألنعشقها ونتعلق بها، أنظر إلى تكويرة أثدائها، سرتها، أفخاذها، شفتيها، عينيها، ألا توقظ مارد الشهوة في داخلك لتتعلق به.

لتعود قليلاً، السيارات، نساء عابرات، وطن مصلوب كالمسيح، أطفال حقول، خبز، جغرافيا، تاريخ، رسم قصائد، لماذا لاتخرج؟!

لدي موعد، أي موعد ياصاحبي؟!، إن مواعيدكم من أجل الخبز، لماذا السنابل تنحني، هل لتعلمنا الركوع، إبتسامتك كاذبة، وتعلقك بالنكتة خداع، هذا ماقاله جان ثلاثين، فهو أنت، ينبض فيه دم نسق حيوان يمتلك ملكة التفكير المجرد، إلى الجحيم أنت وجان الوجع، والجرح مطر ينز من فاتحة الدم، أتناسل الألم منك ليكتسح هذا الكون، الأنهار، العصافير، الخرائط التي تتبدل كل يوم، ألم المخاض، يهاجر الموتى، لا الولادات لماذا هذا الرأس يموت شوقاً للمضاجعة؟ وأي طفل

سينجب هذا الفكر الهزيل، سوى طفل يرسم الأناشيد، يتمرغ في الحقول، يداعب الفراشات، بأنفه المخملي، يشم رائحة الورود، هذا الطفل لاينمو في تضاريس كهذه مثل هذه الأزمنة تحتاج إلى ولادات قيصرية، أطفال يخرجون من الرحم ملتحين يحملون السواطير، ينتهكون، يغتصبون العصافير، والغابات والأنهار، وها نحن نخرج من سخونة الأشياء، أحس بأن كلماتي، ينزل من بين فخذيها سائل لزج أحمر، أصرخ الآن، كلمات لم تعد عذراء، بل إمرأة... أمرأة تعرف كل وضعيات الجنس، أخيراً جاء المطر، ليغسل شباك العمر، ويهدي دموعها للاخضرار والجسد ينفض عنه ملح الأيام، وهاهي فكرتي تجادلني، ترفض وقلم الإلحاح، يقنعها، ترفض... وأنا أقترب... منها أكثر، برجاء ولهفة، الآن هي واقفة قرب أقدام السرير، شحرورة مذعورة، ترتجف، ترتعش، خرجت أناملي عن بكمها، داعبت شعرها، ثم رقبتها، جذبتها نحوي، سقطت عاصفة من جنون لهاثي، على صدرها، لم تمانع قربت كرز فمها من فمي، أشارت بسباتها ليَّ، إليَّ، كن في مكانك، لاتتحرك، أغلقت النافذة، لكي لاتدخل منها الإمبريالية والعولمة، نظرت في وجهي، وكاد وجهي يتلاشى في وجهها، والتجأت برأسها إلى صدري، وكانت أقصر مني، رفعت عينين من حبر، كأنهما السماء تحت نظري، وأن أرتفع فوق السحاب، وقفت على رؤوس أصابع قدميها، لتطال رقبتي بضجيج الشهوة، وكنت أحل أزرار صدرها أعدهما في رتل أحادي، كأيام عمري، هاهي الفكرة عارية مجردة. لاشيء سوى حقل أصفر، يسكن بين فخذيها، ومن تحتها وردة حمراء تتأهب للتفتح، كل شيء في جسدها هائج، أشهد تحولات غاية في الأهمية، في كل حركة، وسطر أكتبه على الجسد، إنتصاب، سخونة، جنون، حمى، مخمل أحمر، على نحاس، أثدائها الجهنمية، تدفعني للخلف، كأنهما جروان جائعان ينبحان على صدري، أمرغ وجهي، في نحاس صدرها، أرفع فخذيها، تعضني، تغتصبني، فيلج سمكي في ممرها المائي، وأحدثت الحراشف في الممر الضيق جرحاً فسال من الذهب الدم، وغرقت.... غرقت... أتحدنا أنا والفكرة سفاحاً، ولبسنا النكاح... النكاح.... الابداعي، فهذه هي حالتي الميتافيزيقية، في اللاوعي... الوعي، في العقل وماوراء العقل وأنا أجتهد لأرسم لكم العالم، وأعود ثانية إلى الرواية، التي سألطخ أناملي بدماء أبطالها.

-المرارة شديدة على خصر الأرض، أنظر إلى الجشع، أتريد أن تقبض على الزمن، لتنزع منه الإعتراف، لكن الزمن رديء، متعفن كسمكة متفسخة، وعلى خشبته الرمادية، يتدلى الصليب، يصلب عليها العصافير، والأشجار وزرقة الماء، بإختصار جينات الهيولى، الأولى، عندما كانت الطبيعة عذراء، وأطلقها الرب من أصابعه الذهبية، فاختلطت هكذا.

وفي ركن غائر من الذاكرة، يرقد فيه خيط من العودة والحنين، وهذا الخيط يوصلني، ببوصلة الندم، التي تشير إلى شمالي الصدئ ، وترمي بذيلها إلى جنوبي، الذي مزق رداء الطهارة، فالشرق لدي لا تشرق منه برتقالة على مائدتي، وحانة الأفق أغلقت أبوابها، فهي منسية، على أنقاضها الملطخة بالأحمر، سيد العرش، والعالم الجديد، والعولمة، وعلى رأسه قبعة الصمت الأزلي، فتعالى ياعزيزتي، ترى ماأرى، أهبط سلمك الغبار، خطوة، خطوة... فالخطوات أيضاً للندم وليست الأصابع فقط، إذا المشهد غير جميل،؟!!! وكيف يكون جميلاً؟!! الفجر مشلول، والنهر مدنس، القصيدة مغتالة، القلم عارٍ؟! مونتاج سريع، (فلاش باك) انقلب المشهد، لماذا؟! تحرك عدسة محاجرك، ربما هناك قليل من الخمر، هذا الكلام الذي قطفته من كرم الوجود، ربما هناك قارورة من (الدادائية) وروث البقر،!!.

أيعقل أن أكون غير آبه بكل هذا؟!! ربما يريد جان أن ينجب أوطاناً تشمل الإنسانية و الإنسان أكبر من هذه الأوطان ، وأن ينجب زعماء غير هولاء البدو و قوميات أخرى غير هذه العشائر . . .

مادامت الروح سمكة مشوية، على فحم الماء، يهرول المساء حزيناً، يدخل إلى القلب، ريح ومطر، وكم أتوق، إلى حزمة دفء، ربما أنا الوحيد الذي ينظر إلى الأشياء بهذا الشكل، لأني

متشكل هكذا، ملك الموت يجلس على شرفته، يعد الموتى كتسبيحة بين أصابعه، يتأمل الأجساد، يختار الضحية، تعجز أمام سيل الأسئلة، لانجيد العوم، الخيبات المذعورة، الأحلام التي تاهت بين الأنحدار والصعود، فنطوي في فم القصب أجوبة النهر، نحلم معاً بصباح الغابات البكر، وهي ترتدي عماماتها الخضراء، نتلقى الأخبار كالوجبات السريعة، في المطاعم، نتأمل المجاعة، الموسيقى، الحرب الأثنية، العولمة »الكمبيوتر «، السينما-الشعر، الإستنساخ، تتزمد الأجوبة، في موقد اللاوعي، الوعي، الذي يسكن قلبي أتناول جرعة أخرى من حزنك، يامن لاتعرفني، انا أعرفك للبؤساء هوية واحدة.

وأندس في سروال ليلة أكثر وحشة، ربما المعرفة نسلها الشرعي، هو الحزن، الذي يأخذ دور عصر الأبوة، يخرج الفرح، من كأس الصدر، وفي قاع الأحشاء تتأبط وجهه النكتة، تهزأ بي حتى يتمدد الألم، يصمت على ثنايا الروح، هل من السهل أن تبني صداقة مع هذا النص؟ في قراءتك إلى ماذا تسعى؟ إلى قتل الوقت مثلاً؟ إلى تسديد ديون المطالعة المغلفة بالاستهلاك اليومي؟ إلى سراب حلم تركض؟ إلى جنون الكاتب وعشقه؟

فجري أصفر كالبطاطا، والليل لايرفع عنه غطاء القدر، ربما جاءت هذه التعابير، من مهنتي الحالية، دعني وتعابيري، لن أقول لك مهنتي، عيب، أخجل، عيب أدعي الكتابة، وستغضب من كاتب، يمارس هذه المهنة، يدخل المعلم، يطلب أن أحضر القهوة، فينهار الهرم الذي بنيته، مطأطأ الرأس أنفذ ماطلب، ينكسر ناي الخيال، تأملٌ آخر ربما يكون أجمل من هذا، لكنني أحتاجك، لتشاركني رغيف الرزيلة، وتجرع معي كأس الحرمان، أقسم إنني أضع القهوة، ثم ألقي بزبدها العذري، دون لمس، يتلاشى الفكر وينزل إلى إنطوأات الحقيقة، في جدائل الشمس، يركل الظلمة، مستوحشة فكرتي، تتزين بشرائط حمراء خضراء....

هكذا اتكئ على عكاز الجليد، تحت ذهب الشمس، أقرع باب الصمت، لايقف النزيف من حلمي، ولاأعرف أين قرأت هذه العبارة عش اليوم ليس هناك متسع من الوقت؟ وقد لاتطول شجرة الغد، وثمارها تكون فجة إن وصلناها، كيف نلملم نثار الحلم الرائع ورسمه غش عيوننا، ولِمَ نغني للحب والبكاء، ونسمر كلماتنا على خشب الإهتمام، هل لنا أغوار تتجاوز فضيحة المحيط؟ ونحن قشة تطفو على السطح.

لقد ورثنا جسد حضارة الإغواء، نتنفس الإنحدار نحو المساحيق، ترقص فاتورة الوقت وهي تمضغنا على عرشها الإلهي، تزحف الشهوة، التي تستعرض مفاتنها في مرآة الخيال، وليلتي زجاجة فارغة، تترسب في مقرها، البقايا المتهدلة، وأشنيات الحسد تنفض حبيبات الماء، فيعود كل شيء أخضر، حتى الحلم ينام في فجر أخضر، وفي برية الصوت تنام حنجرة التراب، وهي تحلم بقطرة ماء، وشظايا العوسج تفتح جماجم الدم، فيرتمي الصمت بكل ثقله على صحراء الحواس، ومابال نهر الدم لايفيض؟؟!! سيفيض مادمت كردياً، والعالم لايتذكرك إلا بالدم والمنابع مبتورة الأيادي، تخلع عريها في وادي الضوء، إذاً لاعتمة هنا، كيف؟!! وأنت تنسل من نافذة الجسد، وإذا عدت، سيعود السواد. لك تلك الفروسيةالتي لم تتزور، فأعد إليها تقمصها، وأمضي بها إلى أصغر عشبة في قلبك وأمدد أصابعك إلى ذاتك ومن بين أضلاعك أخرج تلك الشعلة المقدسة فيك، أكتب روايتك أنت أكتب آثار أقدامك على دروب بلادك وأتركها شواهد للأيام القادمة.

* * *

وكان هتاو يتعاطف معه ويواسيه بجراحه وآلامه وثانياً لأنه كان متشوقاً جداً لسماع مابقي من الحلم الذي سرده في البداية، وأستحثه على متابعة الحلم.

سأله: ماذا شاهدت في هذا الطابق.

وضع كفه تحت خده الأيسر وقال: كيف أجنح للتصالح مع هذا الطابق؟!!

لو لم تطلع المراهقة إلى بهو الطابق وهي ترتدي الزي الذي يشبه أجنحة الفراشة وكلما رقت أجنحتها ، كانت تدعوني إلى التأمل في ملامحها وهندامها الشبه عاري، وأنا أتقدم نحوها بحذر

ونرجسية طاغية، والدوامة كانت تأسرني لأحلق معها أكثر، والريح تعبث بالزغب المغامر على جسدها. وأنا كنت أقترب منها مثل بطل تغويه الشهرة، حاولت الصعود إلى قمرة الجوع المتشظية في جسدي بإمتلاك جسدها، وحاولت لمس يدها، فصعدت إلى السماء.. من كوة في سقف المبنى، وأختفت بين السحب البيضاء المكللة بالزرقة الأبدية، وأختفت، ونزلت الروائح المجعدة الحمراء والمكوية الصفراء، تحاصرني من جديد، هربت منهما ودخلت إلى طابق آخر.

شاهدت فتيات مشمرات عن أفخاذهن يصفعن النبيذ بلونهن وخيوط النبيذ تتسلل من أقدامهن لتنغزل في إبريق الرب فستاناً مائياً من عنب وشعير وقوس قزح.

أما الرجل الوحيد والمحدودب الظهر الذي لم أشاهد وجهه فكان يتلصص من ثقبٍ في أدوات التقطير، أما العانس الوحيدة بين نساء الخمرة فقد كانت تصب ماء العناقيد على أثدائها بينما وضعت حبة حصرم بين فخذيها للمكان الذي يروق للوتد الذكري تماماً، إفطاراً لأربع عشرة قملة تربيهن هناك خصيصاً للقرص والعض.

سأله هتاو؟!!

-وماذا حدث بعد ذلك.

تنهد شاهو وأردف يقول: بعد هذا دخلت إلى طابق آخر وثاني وثالث تهت في الممرات والدهاليز، لعلّي أجد تلك الحسناء وكانت بي رغبة قوية تدفعني للبحث في كل الاتجاهات، وبدا لي أنني أتحسس عضواً فقدته من جسدي، وأثناء تفتيشي عنها رأيتهم.

-سأله؟! من.

-الكهول كانوا يطحنون القمح، لهم لحى كوسائد من قطن شديد البياض، مررت متعثراً بجدائل نحلة، كانت تنز طالبة حبة دقيق، وهنا توقف عن الحديث.

-ربما لأنقل لك الحلم بدقة أو خانتني الذاكرة.

-وهل شاهدت تلك الفتاة أثناء بحثك عنها.

أجاب شاهو بتكاسل.

-نعم.

عندما فتحت الباب كانت الظلمة تطبق على المكان، ورائحة البخور تنفذ إلى الأنف وتوقعت إنني سأجد لهذه الرائحة ايضاً شكلاً مجسداً، لكن خاب ظني، وتعثرت بشيء دافئ ورخو، أخرجت علبة الثقاب من جيبي وأشعلت عوداً، دون أن أرى الشيء الذي تعثرت به، رأيتها تنظر بإتجاهي، أزدادت ضربات قلبي، لكن عينيها التين تسكنهما اللهفة والشوق، منحتني القوة، أشارت إلى شمعدان مركون في زاوية الغرفة دون أن تتكلم، أشعلت عوداً آخر، وقربته من الشمعة فأضاءت الغرفة مع خفقان الشمعة ولملمت الظلمة عباءتها دون أن تستأذن ساكنتها، أقتربت منها بخطوات حثيثة، قربتها إلى صدري، وأمسكت بها من كتفيها ثم طوقتها بذراعي بشدة، لثمت شفتيها، وشحمة أذنيها ثم أنحدرت إلى الرقبة، وأعتصرت نهديها، شهقت وتلوت بين يدي، فنزلنا إلى الأرض، وكانت تعريني من ملابسي، تبعثر وتلاشى ماكان يسترها، ورمت ثيابي كيفما شاءت، ألتحم جسدانا بقوة، فتلوت أكثر تحتي، وغيرت وضعيتها، وصارت فوقي، وهي تطلق فحيح الشهوة واللذة معاً، كانت تحاول إلتهامي، وهي تشجعني بإشاراتها وحركات يديها، أن أدخلها بكل مالدي من إستطاعة وصرخت، طالبة إن أستمر أكثر، وهي في حركة دائمة دون توقف، أنزلقت من فوقي وأرتخت، وكان مايزال لهاثها يرتفع وينخفض بشدة، وانتفضت بعنف وطوقتها بذراعي وساقي وتحركت بسرعة وأرتفع صراخهاأكثر حتى تهالكنا سوية على الأرض.

وكان هتاو فاغراً فاهه يراقب كل حركة وكلمة من شاهو.

- وبعد ذلك سأله هتاو..

- عندما أستيقظت من النوم ومددت يدي إلى سروالي الداخلي وجدت لزوجة دبقة، فتقززت من نفسي.

بان على هتاو الإستغراب وعدم التصديق.

- ألم يكن هذا حقيقة..

- نعم حقيقة لكن في الحلم.

عاد وسأله هتاو وهل حصلت النحلة على حبة دقيق؟!!

في هذه اللحظة جلس القرفصاء، ساناداً ظهره إلى الحائط، ومطرقاً برأسه، وهتاو كان يجلس قبالته تماماً بإرتخاء وهدوء كأنه أستفاق من حلم، وكانت عيون شاهو شاخصة على نقطة ما وفكره سارح في مكان آخر.

بعد برهة عادوتابع حديثه بعد أن طلب منه هتاو ثانية معرفة ما حصل للنحلة.

- طلب سيد الكهول مضاجعتها مقابل ذلك، وكما يفعل الحكماء والزعماء فقد طردها بعد ذلك، دون أن يقدم لها شيئاً، بكىالآخرون ليس من أجلها بل لأنهم لم يمارسوا نفس اللعبة. والنحلة المسكينة لم تتذكر أين فقدت بكارتها.

يحكى والله أعلم- إنهم كانوا يلعبون (البوكر) على شرف الرب في جناح آخر في الطابق الذي دخلته، وأجتمعوا حول طاولات منقوشة على قوائمها ثعابين وتوزعت حولهم الأضواء الحمراء، وهم يمسحون مخاطهم بمفارش الطاولات، فالخاسرون يتم إخصائهم أمام الجمهور والرابحون يتم منحهم فرصة أخرى، قبل حفل الإخصاء الشامل الذي يقام سنوياً برعاية جلالتها مباشرةً.

لقد كانت تحتفظ بالأعضاء المبتورة في خزانتها الخاصة، يحكى إن أحدهم شاهدها في آخر الليل تفتح الخزانة خلسة وترفع تنورتها لكن الفيلم كان مبتوراً هنا، إذ أن الرجل كان قدمات لشدة النور المنبعث من تحت تنورة الآلهة، التي كانت تجرب عضواً ثخيناً، وجدت هنا سروال آلهة مثقوب في وسطه تماماً كما تشاء الحكمة الإلهية، وبجواره حشفة زنجي يابسة وعلى زاويته اليمنى قرأت هذه العبارة /مخصص لحفلات الإخصاء قدمته الربة القديرة/، وكان ثمة تأريخ عميق بعيد وطويل لم اعلم فيما علمت أن تقويماً واحداً يمكن له أن يحتوي مثل هذا الرقم، وثمة قرب الثقب مباشرة تأريخ آخر لليوم الذي تم فيه الإنقلاب على جلالتها، لقد أغلقوا فرجها بالكلس والجير وأنتهت إلى الأبد حفلات الإخصاء والتخفي الليلي وفتح الخزانة الإلهية، وتجريب مقاسات الأعضاء الذكرية-

لكن هذا الرقم كان يوحي بأن هذا الحادث لم يحدث بعد، بل لن يحدث قبل عشرة أطنان من القرون الكبيسة، لمحت بغتةً إعلاناً عن حفلة إخصاء تقام الليلة، فتسللت من النافذة هارباً وبقفزة واحدة كنت سقطت في طابق آخر محطم الساق، لا أعلم بقرار من وجدت نفسي في الداخل، رأيت وياللهول مارأيت رأيت الحيرة إذا سأحدثك عن الحيرة.

الحيرة: مزيج سيء الخلط من الشك والتردد والجبن والدهشة عناصره (تقدير رب حكيم) وقد أفردوا لكل منها مكاناً من غير الممكن فهم شيء أو رواية شيء طالما المشاهد في الداخل-لذلك قررت المراقبة من أحد الثقوب.

-أعتقد جازماً أن هذا كان أول قرار يتخذ في حرمة هذا الطابق.

المهم إنني خرجت وبدأت المراقبة من ضلفتي الباب أطللت أولاً على جناح التردد رأيت عاشقاً يهيم بتقبيل امرأته وفجأة، ينثني والهاً يريد أن يخلق كوناً رائعاً ويتراجع بحجة أن لاوقت لديه، وكانت هناك أمرأة تريد أن تهجر زوجها لتختار عاشقاً رائعاً لكنها تعود مترددة-إلى زنزانتها الليلية تضطجع مع حزنها الدائم.

كدت أشك بأقدامي أنها قادتني إلى طابق آخر، ففزعت إلى الجناح الثالث وهناك رأيت الجبن أحدهم يرتعد أمام صورة زوجه – حتى انتقلت إليَّ عدوى الرعب فاستغثت إذ ظننت أن أحدهم، سيدفع الباب فيراني ومع ذلك فقد عرجت متلفتاً إلى ممرٍ آخر في المبنى.

عند هذه اللحظة حدث هتاو نفسه.

»لقد جن وفقد عقله ومن أين يأتي بكل هذا الكلام؟!! أشك بان هذا حلم لكن رغم هذا لن أناقشه بل سأستمع إليه حتى النهاية.

-مابالك تشرد، هل أنت معي، ودقق في وجه هتاو، هل ترغب في النوم، افعل ذلك.
-لا لا قالها هتاو إن جميع حواسي مستيقظة.
-لحظة واحدة سأنهي لك الحلم الذي رأيته.
وأردف يقول: إن رأيته كان بخصوص آخر التطورات النفطية والتكنولوجية فكان متحدث عن منظمة (الأوبك) يقول: إننا قد تبنينا موقفنا الأخير في (جنيف)، وهم يعتقدون أنه سيشتري منهم النفط، لكن ذلك كان مخيباً للآمال، وآخر صفقة مع الأنكليز لصاحب السمو، هي لضرب إحتكار الأوبك للنفط وفي الإحتفال الختامي لتوقيع الإتفاقية مع..... نسمعه يقول:
لقد قلنا للعرب بأنهم خير أمة أخرجت للناس، وكان ذلك فعلاً مبنياً للمجهول، ولم نقل أخرجوا مافي بطونكم، فلو قلنا: أسود مافي بطون أرضكم، كنا آمنا لكن أن يقطعوا البترول نهائياً من أين؟!
سأتي بالمازوت للأجرام السماوية وللشمس والقمر كل في فلكٍ يسبحون، إذاً ففي هذا الطابق كانوا يريدون مقاولات نفط الله.
-من ذلك الذي يزعم إن الله يستطيع أن يبول نفطاً ،هنا ضحك هتاو:
ونظر إليه بينما كانت عيناه غائرتين في محجريهما من أثر الضحك.
-وهل أنتهى حلمك هنا وأنته سعله حادة وتكررت... ريثما تخلص منها هتاو....
-جاوبه: لا لم ينتهي....
إنه... إنه الذي صنع قصة حبي..
تلك الأمرأة كانت كالنسمة، تسري في أقصى زاوية في القلب، وبريق زهري يتنفس من مفاصلها المكورة يغري كل ناظرٍ إليها.. ومنها كانت تفوح رائحة من أكل التفاحة، هل كان الرب موجوداً هنا، في هذا الطابق هل تعلم ماذا كانوا يفعلون.
حدق فيه هتاو واتسعت حدقة عينيه أستغراباً وإندهاشاً ولم يتكلم.
-هيه مارأيك-إنهم كانوا في هذا الطابق يصنعون العهر لربهم، وكانت محظية لم تكمل بعد إرتداء ملابسها والنور الإلهي مايزال يشع من فخذيها، والأخريات كن ينظرن إليها، بحسد لايخلو من ضغينة أما كيف يصنعون العهر هذا مالايقال علانية، لكنني عرفت بعض الأساليب مما باحت لي به عاهرات الـ.... وهي على الشكل التالي.. أهم الأساليب وانجعها الفقر ويمكن الوصول إليه بتيتيم الطفلات وطلاق الوالدين وغير ذلك مما تقدره المشيئة الإلهية، للحصول على تلك البضاعة البيضاء بتكويراتها الفاتنة، وجلت قدرتك وإرادتك (أيها الرب) أيها العظيم أنت لست في متناول فهمنا الإنساني القاصر، كيف تتعرض فتاة نصفها براءة ونصفها فراشة للإغتصاب من زوج أم شاذ؟!!! إليك الحمد والشكر. ولكن علة النوم جاءت ثانية فرأيت القائمين على هذا الطابق، الذي أعتقد إنه الأخير، هبطوا إلى هيروشيما... وفيتنام، ومن ثم أرسلو الزناة إلى حلبجة... يحملون الخردل والأسيد ومشارط وأدوات لقلع العيون... ومقاصل وخوازيق... ومشانق، أدوات للاجهاض والخصي وستنتقل هذه العاهات إلى الأجيال القادمة وللبشرية مستقبل مشرق.
سبحانك اللهم أنت مانح القنابل، وحرب الفناء، وبوش.. رحمتك واسعة. وهبتنا نابليون وهتلر، وأنعمت على آبائنا بهولاكو وتيمورلنك، والحجاج...والآن صدام.... وقبله آتاتورك....
ومالاحصر له من القتلة والجزارين.....
لك الحمد والشكر وإليك ترفع آيات التسبيح، أنقذنا يارب.
آمـــــــــــين...

-4-
أثـلام المـاء

[6]

تحت تأثير القوة المغناطيسية للمكان، ذهبت إلى حيث كنا نلتقي ونحوم معاً كفراشات هائمة، ضفة النهر دائماً الذي كاد يجرفك معه ذات مرَّة-عندما توغلت فيه، وتياره القوي يجذبك نحوه، وأنت تفتقرين مهارة السباحة، وحين أخرجتك من الماء كانت أثوابك كلها تلتصق بجسدك الشهي، هذا المكان الذي اضفينا عليه جميع الألقاب الحلوة، والذي مازال فيه ذلك الموقد الذي أشعلت لك فيه بعض الحطب اليابس، لأجففك على ناره-كما قلت- بعدما عصرتك جيداً بين ذراعي، وخلعت عنك ملابسك المبلولة، محتمية بهذا الجرف الصخري، من أعين الطفيليين، وقد نقلت البلل إلى ثيابي، بالتصاقك بي هكذا نصف عارية مبلولة جداً، وكأنكِ تتجففين بي وكنتُ كأنما في حلم ولسانك في فمي توحشٌ بدائي للجوع البشري، مخدعنا هذا كنّا نسميه عش النسر والحمامة.
كان شاهو مشدوداً إلى هذا المكان وكأنه على موعد مع أفين، جاء وجلس قرب شجرة الجوز العتيقة هذه التي تنحني أغصانها لتلامس الأرض وصفحة الماء، كان يرتعش قلبه كما في كل مرة يلتقي بها أو ينتظر قدومها، رغم أنه الآن لا يتطلع إلى الدرب الذي ستأتي منه ولا يترقب أن يراها مقبلة تهبط الجرف الصخري ذاته عبر المنحدر الضيق، الذي لا يمكن لأحد بلوغ ضفة النهر إلا من خلاله. بعد ان لامس بأصابعه جذع الشجرة، شجرتهم العزيزة العجوز وفي ذات الموضع الذي كان يستند إلى جذعها وهي تلقي برأسها إلى كتفه.
-وليست لحظة كاملة بل برهة قصيرة جداً كومضة خيل إليّ أنني سمعت ضحكتك!!
لكني لم التفت بل ألقيت بأقدامي إلى الماء جالساً في ذات المكان الذي تعودنا الجلوس فيه، تاركاً مكاني بجانبي كأنك موجودة بالفعل، وأكاد أقول أنني رأيت صورتك إلى جانب صورتي، وقبل أن أعمد إلى تشويش ذلك رأيت صورتينا تمتزجان معاً ثم تسافران مع التيار الذي جرفني وجرفك.
مازال النهر شاهداً صادقاً على الحياة وهو هنا شديد الصفاء لذلك أسميه (نهر أفين) لكن بعد أن يغادر هذا الجسر الذي بناه الفرنسيون على نهر الفرات، بعد مئاتٍ قليلة من الأمتار يدخل مدينة الرقة ولايعود له عندها ذلك الاسم فهو يخلع عنه كل نقاء وكل أفين،ولست أدري إذا كنا نشبه ذلك النهر في هذا أيضاً!! لا اتطلع إلى صفحة الماء فأنا أشعر بوزن حضورك إلى جواري، دون أن أتوهم صورتك في النهر، لكني بدل أن أكتب لكِ أخيراً تلك القصيدة التي وعدتك بها بدأت أكتب هذا الذي لاطائل منه سوى زيادة الضرام الذي يتأجج في قلبي.. من أي صدرٍ أمومي تأخذين كل ذلك الحنو، وتلك الرفاهة الفياضة، لتحولي الكون حولي إلى مايشبه السديم الخرافي من العذوبة والرقة وكأني لا أعيش في الواقع المادي للحياة بل في حلم بعيد الغور، رغم الطين الأزلي على حافة النهر والوجود الواقعي لمكاننا،
إلا أنني لست هناك كما تعلمين، بل أنا الآن بجانب نهر الزاب وأعود بذاكرتي إلى الفرات الأعلى، أرانا الآن وقد نهضنا مبلولين بالعشق والماء وسرنا متخاصرين على ذلك البرزخ الطيني، وكتفي تستسلم لثقل رأسك، وأحس بدفء جسدك على خاصرتي اليسرى الآن، رغم أنني مازلت اتابع الكتابة الوهمية في مخيلتي وتشويش صورتك بعبثي في ماء النهر.
من هذا المكان قدت أنا وأياكِ -بأحلامنا- كل تلك الانقلابات التي رغبنا فيها، ولم يكن أصغرها تأسيس ذلك الحزب الثوري الذي يخوض حرباً طاحنة لتحرير بلادنا العزيزة من كل أشكال الكره والتعصب، ليؤسس شكلاً من الحكومات الشريفة التي لا هم لها سوى النقاء الوطني والإنساني الشامل.

ولازلت تلحين عليَّ بكتابة قصيدة لكِ –قصيدة أفين- فأنت ترين أنني أفضل شاعر في الوجود، أما أنا فأخيّب ظنك دائماً عندما أفشل في الكتابة عنك، عجيب هو قلب المحب كيف يصور الدنيا لصاحبه، كأننا سنأتي إلى لقاء قريب، أراكِ إلى جواري في كل زمان ومكان، عندما نكون معاً فعلاً ونتعلقين بذراعي وتقفزين من هذا الجانب إلى ذاك بل تدورين حولي كفراشةٍ في حقل الصبح أنشغل عنكِ بأفكاري الحزينة وبالأسئلة التي تعذّبني وأشعر أنها ستفرقنا إلى الأبد مثلما أحس بأنني ابتعد عنك وأنت ملتصقة بي، تحاولين إسعادي ، دون ان تسألي عن سبب حزني أو عن تلك الغمامة السوداء الكبيرة كبرزخ يفصل بيننا.

كان شاهو في تداعياته يخلط بين الحلم واليقظة ويحاول أن يسيطر جاهداً على خيالاته الجامحة دون جدوى.

-كنت أشدك إليَّ بشكل مؤلم دون أن أدري، حتى أسمعكِ تتوجعين وتطلبين أن أخفف ضغط كفي على خاصرتك.

-وتهمسين في أذني: تكاد أصابعك تكسر أضلاعي، فأعتذر لكِ ونمضي دون حساب لمسافة، بل دون إدراك منا بأننا نقطع المدينة كلها دون الشعور بالتعب.

-كيف استحال موج الضحك إلى رماد، آه كم أحتاجك، أقبّلك، أشتمّ رائحة من مكاني، لأستنشق منها رائحتك الغبارية، هل أنتِ معي، المساحة الفارغة والشعر، تبتسمين، ترجمنا الألم إلى أملٍ مشترك.

الدهشة تكبر وتنمو في ملامح دمك ، إنها الحمى، ياأفين.. كم خدعتنا فضة الأيام، في مسافة الشمس، وكم أحببت المقاهي، كان لي ولك، موعد يتيم.. في مقهى حقير يقابل السجن، تمردنا حينها على كل شيء، كان معيباً جداً أن تدخل فتاة مع شاب إلى مقهى، في مدينة مثل الرقة، وفعلت ذلك، ذاك اليوم كنت تحملين الحاضر والغائب، بين ثنايا وجهك كنتُ أحمل جعبة الألم وسرّة الضياع، كم أشتاق إليها، أفتقد هذه المسافة بين الواقع والحلم، ربما نتذكرها، ونضع في ركن قصي في متحف القلب جنون الشوق يدفعني إليك، تضيق فيَّ الجهات وأتمسك بحبل الرماد في حلم (.....)

حتى نشعر بأن المدينة تشعر بالتعب من مسيرنا أن الأرض تشعر بالدوار مما دارت بنا، وعليها أن ترتاح قليلاً، فنجلس على الرصيف هكذا كأي متسولين، أو ندخل حديقة نجدها أمامنا بمحض الصدفة، ونستلقي على العشب شبه متعانقين، وكأن لاأحد في الدنيا سوانا لنصحو على صوت الحارس يطلب منا المغادرة، متأففاً من هذا الجيل النائه.

أنا سعيد بك حتى في الحزن، ذلك الحزن الذي لاأشعر به إلا عندما تكونين معي وخوفي الغامض أن أفقدك، عندما تكونين معي.

تنهمر الأسئلة المقلقة وتعصر قلبي، فيكاد يختنق بينما أنت تسألين:

-كم ولداً سأنجب لك.

و.....

وبدلاً عن ذلك الطفل كنت تحملين البندقية في حضنك وترضعينها االحرية.

وهذه كانت نظرتي للأشياء لكنني لم أستطع أن أرفض لك طلباً، ولم يتحقق ذلك كان همنا أن نكسب الحرب ونحرر الوطن لكنك ذهبت كحلم من رمل هرب من بين أصابعي.

هل عليَّ أن أصدق أنك رحلت؟! حتى أشعر أننا كنا معاً منذ الأزل، ولم نفترق، أنت الآن أكثر حضوراً، وأشك بأننا كنا كائنين منقسمين نعم كنا هنا دائماً معاً لم أشعر يوماً أنك بعيدة عني، وأنا الآن أبحث عنك كمن يبحث عن عينه أو يده!! لا أشعر بأنني أبحث عن شيء ينقصني بل عن نفسي التي أنقصها، أنا –أنت– صورتك في الماء وحفيف أوراق الشجر وتمضي الأيام وتجلدنا بسياط الفراق ونحن بين رحى الخوف وهي تدور.

وها أنت تحملين عني البندقية.. البندقية وتودعينني –أريد أن أبقى في حضنك لحظات يابابا طويل وأنا أرتعد من هذا الكلام، وتبقين في حضني تمسح العتمة دموعنا، أودعك، أذهب إلى العملية ونقع في الكمين وأُصاب بطلقات في كتفي، ومع الفجر، كأنك كنتِ ترفعين سجف الخيمة عن الليل وأعود إليك ثانية، ثم تحضنيني ولا تعرفين أنني جريح، وعندما تشعرين بلزوجة الدم في كتفي، هكذا ترفعين أردان القميص وتلعقين دمي، ولم أجد تفسيراً لذلك.

وفي الاجتماعات تقومين بانتقادي الشديد.

-هذا الرفيق يتحلى بروح المثقفين المشبعة بالانتهازية، وهو غير مجِّد في الممارسة العملية، وتتابعين الكلام.. والكلام يخرج من بين أسنانك فقط وهو في أزمة أما أن يهزأ من كلّ شيء أو يضحك من كل الأشياء، وأما أن ينعزل متقوقعاً وفي تدريب الكوادر المتقدمة، كانت المفاهيم المتطرفة قد تغلغلت في جسد التنظيم، والمفاهيم الإقليمية كانت تنشب براثنها في هيكل وحدة الحزب مما أدى إلى تفشي ظاهرة الهرب بين صفوف الرفاق والرفيقات.

وفي يومٍ باردٍ ماطر أندفع كالمجنون إلى فصيلة الرفيقات وخلسةً نلتقي أطلب من قائدتك نالين.. القادمة من الجزيرة التي ماتزال تعبق بمواسم القمح والريف، والثورات المنسية ومعاناة الحزام، وأحلام دراسة لغة الأم والمطهرة بالحرائق والموشومة بالتعريب والمستوطنات.

أطلب منها أن نلتقي لأنني سأغادر غداً إلى ديرسم رغم الأصابة، تحضر لي الشاي في إبريق أسود تقدمه لي وتقول آه يا مجنون أتنسى أنك ثوري؟.

بينما أنت في نوبة الحراسة تحتضنين وليدك الحديدي أغادر الخيمة البلاستيكية، وترتمين في حضني وكان المطر يبللني ونبكي معاً متعانقين.

في الصباح لا أعرف كيف تم إزالة اسمي من لائحة الفرز، وأنت تودين أن تعلني حبنا أمام ستمائة رفيق ورفيقة.

-لا..... لا سيقومون بتصفيتنا الجسدية بحجة محاكمة المفاهيم، واحمل كتاب الجريمة والعقاب لدستوفيسكي، أربطه على الحقيبة الظهرية، وننتقل معاً إلى سيدار ونبقى معاً نعمل في الاعلام ونقوم بإصدار مجلة، تحت أسم **Gernejîn** التي كانت عرضةً للانتقادات بسبب اسمها، وأنت تعزفين القصائد على الآلة الكاتبة، سيل الحبر، رسم الكلمات هل هما الشاهدان الوحيدان على حبنا وأيام العمر التي انزفها بعدك مكرهاً بقوة الموت نفسه، والورود التي كنت تجففينها هكذا تقولين أنها عذراء من الطبيعة وتحفظينها بين مادة لاصقة شفافة لكي أضعها بين دفتري، وأرى كل ذلك أجزاء حقيقية من معركتنا ضد أنفسنا وضد الكره والشر، هي الثورة كم من الأجيال قطعت كي تأتي إلي من تلك القرية الريفية في عفرين وبيئة الزيتون المطعمة بالأحزاب التي لانعرفها إلا من أسماء رؤسائها اسماء متشابهة وانقسامات جديدة والحزب الواحد صار عشيرة أحزاب.

ونهر الزاب المبارك، ألم أقل لك أن وجودنا قديم قدم الدهر، روحانا الصغيرتان كانتا قبل المدن والثورات، والمراعي وكانتا كفراشتين تحلقان في رياض الزمن وتعبثان معاً بزهر الأيام، حتى كانت تلك الرحلة الحزبية (إلى جعبر) والآن كل مافعله الماركسيون إنه قد قلبوا الهرم، صحيح إن الرأس أصبح في الأسفل، والقاعدة فوق، لكن الدود بقي ينغل في الداخل، واستمروا في تلميع التاج الملكي، المتقرح، كمهبل مترهل يتآكله إخضرار العفن.

شيوعيوا الأمس جعلوا من عظام فرج الله الحلو ودماء نضال آله رشي قوائم مزركشة لعروش السلطة.

وكان ماكان حين تأبطت عيناك قلبي، وكانت ابتسامتك تشق ظلام الليل كضربات زعنفة في يم غامض، كما كنت منذ الأزل حفيف شفتيّ وهي تبحث عن شفتيا وحين القيت في فمي عذوبتهما وطراوتهما الدافئة اشتعلت بك. أعرفك.. أعرفك.. قبل أن تكوني وقبل أن تكون المسافات، وقبل أن تنبثق الأنهار من قلب الصخر، وقبل تشكل السبخات، وينبت القصب وكان العناق الأول بعد العاشرة بعد المائة التي كان يفصلها ثلاث سنوات من النضال المرير والحلو، وفي ساحات

مختلفة، وكان الزاب يدغدغ أقدام الكهف الذي يجمعنا في الهزيع الأخير من الليل، وثم جاء الصبح كأن الشمس طلعت من جسدينا، سارقة تكورها من نهديك، ولم يكن ينقصها إلا الحلمة التي رحت أعريها على شفتي وراء الصخور، وكان الجبل ينحني فوقنا كمرضعة لوليدين، وتنحنين فوق فمي وكانت السماء قريبة جداً أو خيل إلي أن آخذ قطعة من الزرقة الأبدية وأفرشها بساطاً تحت أضلاعكِ، عصرتك هكذا وعلى مهل، وشربت فيضك وعدنا ملتصقين مترنحين بالنشوة ويدي تغرق مغتسلة في وجهك وكنا نتعمد بماء الزاب لنتحدث معاً عن الفرات واللقاء الأول وشعرك القصير ليلة مبللة بالنجوم، وأنت تضحكين كأن السماء المزقزقة تلقح الأرض بالفرح، وكانت الرمانتان والجعبة والمسدس **(Şûtik)** حواجز بين جسدينا، الأشياء التي صارت تدور في قلبك كالرحى، وحين سمعنا صوت طلقة تدعونا للإفطار انطلقنا وابتعد عقلنا عن الواقع الثوري والمهام اليومية وتدريب الكوادر.

وحينما غصت في النهر كانت عيوني -الماء- تكتشف أفخادك كومض ذهبي وجذبتك ثانيةً ثم أسرعت خطاي نحو الدرج الحجري لأخرج من الوادي إلى الأعلى، وكان النهر كثير الشمس (والمرتوخة) أثقلت معدتي وعدنا غريبين كأننا لانعرف بعضنا وأنا احترق مع السيجارة والمساحة المعترضة بيني وبينك، وتتضمين في تجويف قبضة من الصلصال المرن وأنضم إليك كتفاً إلى كتف ولم أكن أشعر بك على صدرك أجفف نفسي من قيظ ذلك النهار ويداك تمسح جبهتي كمنديل حرير وأظن أني أهمس لك.

والرفاق يقهقهون للدب الذي دخل المستودع وخلط الطحين بالعدس والرز وترك غائطه فوقهما، وكانت ضحكتهما ترتفع إلى الأعلى مع وضع لغم **(Anti parsional)** على باب المستودع وبذلك بتر أحد قوائم الدب.

والجبل يصعد بنا نحو القمة للاستطلاع على تمشيطات مقبلة نحونا.

وهذا الصباح اغتسل بالأشياء الصفراء للشمس وانتظر أن يحمل لقائنا على أجنحة ضوءه، حقاً لقد ذهبت الكلمات ولم يبقى إلا الذكرى وانا ملتبس بالذكرى التي تلبسني وأنا أمشي على أرصفة الليل وانتظر أن أحمل في قلبي معاناة السجن، وأنتِ تعرفين كيف يمر الوقت على مساءً ينتظر الصبح، والمساء لاينام على وسادتي –الحقيبة الظهرية- وأنا أعصر الأحلام والجبال والبندقية وكل رفيق ورفيقة قادمة من منطقة فاعليتك، كي تقطري منها وأنا اتدحرج مزقاً، ورحت أدحرج على مضض كرة الوقت الثقيلة أن نلتقي كعهدي بك.

* * *

تهطال الثلج، كان آخر ما توقعه »شاهو« في ذلك المساء، لكنه كان خفيفاً، وكأي ثلج ربيعي في أواخر آذار، بدت السماء وكأنها تخلع قفازها الأبيض ببطء وتلقيه كملاءة على وجه الأرض..

»بيشمركه«!.. قال شاهو في نفسه، وهو يرتدي زيّه الكامل كمقاتل، وتنكّب سلاحه، ثم رفع سجف الخيمة وخرج، متجهاً ببطء ولكن بعزيمة نحو الجنوب..

- إنها ترقد في جبال »كارا«..

هذه العبارة ما تزال ترّن في أذنيه تاركة ذلك الطنين القاهر المعذب.

قالت له ذلك »نالين« قائدة المجموعة في تلك العملية التي استشهدت خلالها أفين.. حبيبته..

- علامات، إشارات، دلائل.. نحن مجرد علامات، أو هكذا سنصبح ذات يوم..

قال شاهو في سرّه، وهو يجدّ المسير الآن مبتعداً عن المعسكر، متتبعاً تلك العلامات التي حدثته عنها »نالين« والتي سترشده إلى حيث ترقد حبيته..

- يارب..

همس شاهو متوجهاً إلى المطلق الكوني، الذي- منذ ساعة فقط- كتب آخر سطرٍ في صفحة النهار، وفتح دفتر الليل..

عوى ذئب بعيد، تماماً عندما غابت آخر أضواء المعسكر عن عينيه وهو ينعطف مبتعداً بإنحدار طفيف تحت ذلك الثلج الناعم..

نصف قمر، كان يرسل بعض الأشعة على الوهاد، والدرب تكاد لا تبين.

- الغناء المرّ- يا أفين- يا حبيبتي- وحفيف القمر المكسور على الثلج، والدرب إليك، والرعشة.. الصعود، النزول، اليمين اليسار، الجهات كلها تذهب إليك، يا من توشحين الحياة كلها بحضورك المذهل.

وتنثرين على المدى أفق لونك الزهري، أيتها المطريّة، يا عصراً من الفيض الحنون على شتلات الروح.

غاب القمر النصف، وراء أجمة جوز، شاهو، والبرد يلوك أصابع أقدامه، والخدر يسري في الساقين الباردتين.. يمشي، يمشي، دون أن يحس بعناصر الطبيعة التي تتحرك حوله..

سنجاب، كان ينظر إليه من غصن جوزة عبر كوّة في عبٍّ الشجرة، وبومة وحيدة، تترقب الفرائس بحذر وهدوء..

الصبر أيتها الملائكة الجسدية، والدم يصعد بارداً إلى الرأس والثلج والدرب، ولا نجمة واحدة في السماء.. الغيم يطبق على صدر الأشياء، الروابي والوديان والجبال.. الأشجار والكائنات وآذار ينقضي موحشاً.. موحشاً كالقلب..

- أفين.. أفين..

- حبيبتي.. حبيبتي، جنتك، جنتك، كما ترتسم أثلام الفلاحة، جنتك كما تطلع بتلات القمح، إلى صدرك أصعد، مبللاً بالعشق، والروح الخضيلة تفقد الطيش الأخير على أبواب جسدك المشهرة..

الثلج يرسم آخر دروب السماء، يغيب القمر حيناً، وحيناً تظهر وراءه كوكبة من النجوم، محظيّات الملك، والعروس، والجنوب في الأفق الطازج والفاكهة تقدّم الآن على مائدةٍ أخرى، بلا حرّاس، والعذبة- حبيبتي- ترقد وحيدة في ثدي البلاد..

الرابية المشرفة على الروابي.. والشجرة المدللة بين الأشجار.. حبيبتي، في نومها، لا يزعجها دبيب الملأ المقبل، أيتها البنات، يا رفيقات لا ترفعن أصواتكن كثيراً بالغناء، حبيبتي تنام فلا تزعجنها برفيف أصواتكن وأجنحتكن...

النداء الأخير للجسد، إذ تخفق الراية في الريح، تلك البنت.. البنت الأخيرة، والطلقات الأخيرة، ذهبت بلا هدف تقريباً..

- أفين.. أفين، هل ستسلمين نفسك؟!..

قالت لها القائدة، وهي تنسحب.

- تركناها لتحمي انسحابنا!..

نالين- القائدة المصابة في ساقها، قالت له ذلك أيضاً...

النصل المشهر في الجمر والأفق- يا حبيبتي- الراية العالية في مدِّ الوجد، أيتها الشامخة، هناك أنتِ ولا وجود لي إلا بك، حين تنذرين صوتك للعاصفة المربّعة، وللوجوه الأخرى رائحة الصمت، يطلع بك آذار مثخناً بالجراح والقهر والقتل، آذار مهاباد واعدام القاضي في (جارجرا) آذار البارزاني ..ومظلوم دوغان،حلبجة آذار المجازر وهذا ربيع آفين لتكتمل بك دورة الموت، والعذاب.

الموت، وآذار، يعصر عنقود الفراق بين وجهينا، يا حبيبتي، يا أكواز الذرة المنسية في حقل حزيران..

أراكِ بوضوح، عيناك النسريتان تضيئان دربي، في القارعة أغني لألمس أثر مرورك المضيء..

انعطف شاهو قليلاً مبتعداً بقدمه عن كائنٍ ما، حي، كان يتجمد هناك في الثلج.. نفخ في راحتيه نعشاً دافئاً، وقاد نفسه بهدوء، وبتفكير عميق بالأشياء..

جوزة عتيقة، كانت تطقطق هناك مثقلة بالثلج..

- البارد غيرك، يا قلبي، والشامخ أنت، فلتصعد، نسغ الدم لك، ومن الماء صنعوا جديلتك، إنما أرتمي تحت مدِّ أصابعك اللاهثة في الليل بحثاً عن عنقي..

توقف الثلج، وانكشف الأفق الغربي قليلاً، نجمةٌ بعيدة بدت تنشر ضوءها، كنفخة مزمار..

أشعل شاهو لفافة، مستنداً إلى بندقيته.

- الاستراحة الآن- أيها المقاتل- تعني الفراق، فلتكمل إذاً، إلى الأمام، الجنوب.. الجنوب..

الفرات.. هناك، حيث التقينا أول مرّة، يجري.. وئيداً، أسمر كشعرك، يتلامع متدفقاً على ضفتيه الخضراوين، مليئاً بالعطاء..

- سلّم نفسك.. صوت أحمق كان يصيح.. بلغة كردية واضحة.. لغة حليب أمها ذاته.. والقنبلة الآن كمين جاهز قرب الصدر.. لم يعرفوا أنكِ أنثى، أيتها المتفتحة وردة نار فوق هضاب بلادي..

- تعال أيها الحبيب المتلفف بصواعقك الماجنة أيها الوطن، أيها الرجل الأول، خبأت لك جسدي، بياض فصول الجوز الطاهرة، خبأت عنقي وشفتي، فلتأخذني بين ذراعيك، وفي فمك، خمرة مسروقة من مائدة الآلهة، أيها الحنون كأب، أيها اللعوب أكثر من حبيب أيها القوي أكثر من أخ، يا زوجي الكوني، املأ شفتيّ بك بلسانك، بصوتك، أنتَ في فمي توّحش بحري، وقوة أخرى تطفر في الجسد الشقيق، أيها الفاغم شوقاً وحناناً.

- أتذكرين إذاً »كرين«؟! تلك الحديقة الصفراء، خريفاً، وأنت مقبلة كقدر يمشي على الأعشاب، تخرجين من أبط الريح وتلفلفين أردان معطفك، كأنك تهرّبين دراقة ناضجة في صدرك.. أتذكرين؟!..

ذهب الوقت، وجاء وقت آخر، التقينا، تغيرَّ المكان، صرنا إلى مكان بلا زمن، وبلا شجن، كنا كأنما نخرج من وقتٍ إلى قدرْ..

القمر الكسير، أطلَّ أخيراً، وأرسل ضوءاً متراقصاً، كوعلٍ جريح راح ينثر الأشعة المتقافزة فوق الثلج..

الدرب ينعطف (يميناً- غرباً) (يساراً- شرقاً). قليلاً.. قليلاً، أحسَّ شاهو بدبيب البرد المتجمد يسري في ساقيه، صعوداً إلى فخذيه.

- أمش.. أمش أيها البشمركه..

لاحظ شاهو- تحت ضوء القمر- أثر خطوات ذئب إلى جوار دربه. ذئب، خطواته مضطربة، كأنه جريح.. ولكن لم يكن ثمة دم..

ومن بعيد، في إحدى القرى، كان ثمّة عرس، وصلت أصواته إلى أذنيه، فتيات كردّيات يغنين عن عريس جميل آتٍ برجولةٍ إلى عروسه..

»Lo zava...Lo zava...«[14]

أشعة القمر تتراقص كرسالةٍ مهملةٍ وعيناه الثقيلتان، من البرد كثقل البندقية، الآن يضغط عليه بقوةٍ تلمس الفوهة – يا حبيبتي- قال في نفسه: وهو يعلم أن أفين والبندقية توأمان، أفين أفين تردّد صوته على الثلوج وهو يداعب زناد البندقية منعطفاً آخر ثم ذلك النهير الصغير الذي يسقسق كأنشودة عتيقة عن الحب والحياة، وتطلع شجرة الجوز أمامه مباشرة، لقد نقشت »نالين« ذكرى عن رفيقتها أفين- تركناها تحمي إنسحابنا وعدنا في اليوم التالي لندفنها- إنها ترقد في جبال الـ.... تذكر ذلك أيضاً لكن الثلج كان يغطي كل شيء.

- أين ترقدين أيتها الملكة بزفافكِ المقدس.

ألقى شاهو البندقية جانباً، وراح يحاول بكفيه أن يكشف الثلوج عن قمة الرابية بحثاً عن أحجارٍ أربعة متقابلة تلك الأحجار هي العلامة التي تركتها »نالين« للدلالة على جسد أفين الذي يرقد الآن صامتاً كناي في تراب الوطن.

أصابعه المتجلدة لم تكن تشعر بأنفاس أفين التي صارت وكأنها تصعد من أبريق القمر، لم يعد يدري أنه صار يبحث بفمه عن شفتي حبيبته، عيناه اللتان أعماهما بياض الثلج، أخيراً وقعتا على الأحجار، أحتضن تلك الكومة الرقيقة المستطيلة من التراب، راح يصرخ بأصوات لا معنى لها كأي أبكم عصاه النطق، أصابعه تنغرس عميقاً في التراب المتجلد وكأنه يهم بنبش القبر انتشال أفين من عتمته، دمٌ جامد تسلل إلى بياض الثلج وهمس خفيف كأنه زفرة من زفرات أفين.

- حبيبي حبيبي

عاد الثلج إلى الهطول، والقمر الشاحب رجع إلى مقصورته الملكية لينام وشاهو الذي لم يكن يعلم أنه يبكي أو يضحك فوق قبرها، كلماته بلا معنى أصوات غير مميزة يبكي كالضحك ويضحك كالبكاء، ككائنٍ خرافي يصرخ أصواته البكر قبل إكتشاف اللغة.

أسماء قليلة كانت تتميزّ بين تلك الكلمات، ولو كان ثمّة أحد يسمع إليه، لفهم أن هذا الفتى كان يصرخ، أو يهمس، يبكي أو يضحك أو يغني، لأمه وحبيبته، أخته، بل ربما أخيه قابيل، القاتل: كردستان والطنبور وهتاو، السجن والسلاسل والحريّة، الجبال والأنهار، والأنصار، آرارات، دجلة والفرات وأناشيد الحجل.

غرس أصابعه عميقاً في التراب، والثلج على القبر يرشح، والبرد في القلب، يرتعش البرد نفسه، هناك في العمق، تحت واحد من تلك الأحجار الأربعة، الأوتاد، جهات الكون الأصلية، جهات الوطن...

- من أي دمع غزلوا ثوبك يا حبيبي؟ ومن أي قمر؟!

تطلّع شاهو إلى السماء، كان القمر بين الغيوم يرسل أشعته، من أي انفراج بسيط كانت أشعة الشمس تترقرق كجدول ماكر..؟!!..

شاهو كان يدفع كفيه تحت الحجر، يضمّه إلى صدره، ثم يرفعه عالياً كأنما يتقدم بقربان..

في كل حجرٍ من هذه الأحجار الأربعة، رأى نفسه، افين، هتاو، و »ميديا« أو واحداً من تلك الأوتاد الأربعة التي قيدت »عدول الثانية« التي كانت تزوره دائماً في الأحلام، العروس، لتُغتصب، ولا تُنتقص فحولة عروسها.. وهذا الحلم كم قضَّ مضجعهُ ، كأن هذا الحلم جزءً من حياته بل حياته كلها...

[14] - يا عريس.. يا عريس.

ًولكن.. هتاو.. هتاو.. أنتَ هنا أيضاً يا صديقي، ترى أي حجر من هذه الأحجار الأربعة أنتَ؟ أي ودّ؟ وأي قيد؟!.. أي ربع من أرباع الوطن؟!.. هتاو.. هتاو! كيف ضحّيت بنفسك من أجلي؟!.. الآن، من هو الذي مات منا، ومن نجى؟!.. من هو القتيل ومن هو القاتل؟ من الذي ضحّى ومن الذي سرق التضحية، ومن الذي عاش ليكون وفياً للتضحية أو خائناً لها؟!.. هتاو، هتاو.. إغفر لي يا صديقي.. يا أخي.. يا.. يا قابيل!..

شاهو، تناوبته الرعشة بعنف، كأن أذرعاً قويّة قد أمتدت إلى جسده وراحت تهّزه بعنف.. أو كأن قوى لا مرئية التقطت روحه، كما تؤخذ الطنبورة في ثورة تأثر، وراحت تعزف عليها تلك الأصوات، كلماته المضطربة تلك، التي تصاعدت كنوقيعات وحشية مضروبة بهياج، في بريّة من النزيف..

وحلم من الغبار، يذبل في القلب وعلى الثلوج، والشراع تدفعه العواصف الهوج إلى الهوّة الفاغرة..

يا جبال.. يا جبال.. يا أبي، يا أمي، يا حبيبتي.. أيتها المطعونة في الزقزة الأولى، في صراخ الولادة أو بكاء الفطام.

من أركان القبر الأربعة، من أحجارها، من أصوله، تتلعثم كلمات لها شكل صناديق العرس:

- أنا لكَ.. أنا لك..

شاهو المصعوق، لم يصدق أن هذا صوت أفين..

- خذني- حبيبي- بين ذراعيك، ضمني بقوة..

- تتلعثم الكلمات على شفتي شاهو، وهو يغرس كفيه عميقاً في التراب البارد، ووجهه يتمرّغ في ثلج الموت..

- فمي مملوء بالتراب، يا حبيبي، وحلقي تسكنه كلمات كالتوابيت تخرج مليئة بالنزيز..... .....

- شاهو، صار يرى الكلمات كأثلام في الثلج، ويسمعها كخطوط البرق في الأفق، وكيانه كله يرتعش تحت وقع أحرفٍ تسقط على أذنيه كالسياط..

جلس شاهو محدوداً متقمصاً شكل القبر، وكل الأشياء الجميلة ماتت دفعةً واحدة في قلبه، تكفن بالحزن وخاطب القبر، أفين، أفين، كل هذه السنين من النضال أبخلت عليكِ بقبره يحمل اسمك؟

كان لا يستطيع مغادرتها فهو ينقد لها بسلاسل لا مرئية والآن هو مقيد إلى القبر وصاحبته.

-ألا تسمعين، أنا لا أصدق إنكِ متِّ، آه.. ياأفين لو أجلس إليكِ ثانية، ألم تكوني تحبين المطر والسير تحته، جاء المطر ولم تكوني معي، وكم كنتِ تكرهين الثلج وتحبينه بنفس الوقت، الثلج هذا الجنرال يمد ذراعيه يحتويكِ.

من غيركِ أتحدث إليه، لماذا أنتِ صامتة، ألا تسمعين.

ونظر حوله ثانية، تتملت أقدامه للركوع الخشن وارتفع بنظره إلى قمة كارا العالية كيف ينحني فوق الوادي، وكان هو منحنياً فوق القبر.

عميقاً.. عميقاً، كان شاهو يغرس أصابعه في التراب المتجلد، كما تُغرس أساسات الجسور.. وكأنه يحاول ملامسة جسد أفين، وربما لمس- دون أن يدرك ذلك تماماً- أقدامها أو رأسها!!...

- خذني.. خذني..

التراب يصرُّ كمزلاج، كذلك كان انزلاق القمر كصوت سحج الفرائين!..

والليل بدأ يتصاعد نحو الهزيع الأخير..

- فمي مملوء بكَ يا حبيبي.

قالت تلك الغيمة التي جلست قبالته على حافة القبر، وكان لها شكل أفين-:

- فمي مملوء بك، بشفتيك وعنقك، خذني، أو تعال إليَّ، لسانك بين أسناني، وهجُ الوجود، ومضغٌ كالخرافة، وعنقك سديم أحلامي، ضمني بين ذراعيك، أتوحد بشفتيك وصدرك، ونذهب بعيداً في معراج الحب والغمام..خذني ..خذني ..أنا لك...

البندقية المشرعة في الريح، وفوهة البركان والجرح ياحبيبتي أفين، أيتها الملكة على عرشها المدثر بالبخور، ونزق الجوري، خلف كل سدٍّ، طافحة أنت بالقداسة، والشمع الأحمر الذي يزنّر موانئك الأخرى، هكذا تخرجين، من رأس الفتنة الجديدة، بكامل عدتك، وعتادك العشقي يأخذ السحر إلى موجةٍ جديدة في العنق السديمي، الذي ينبثق من الثلج، كما تولد الحياة من صمت الصخر الأزرق من فضاءات الآلهة الغافلة... أيتها المقبلة على عربتها النورانية تقطعين الأفق الغامق أمامي، وأنا في صعقتي، ألتف قربك كالشبكة المهملة في مؤخرة القارب، أو الورقة المنسية في الريح.

شاهو، المطوي في حالة سجود، يمد يديه إلى الأحجار الأربعة، الأوتاد تتنابه ارتعادات الحمى، وأصابعه المتجمدة بدأت تتورم، ثم تذبل وتقع واحدة تلو أخرى كأوراق الخريف، دون دماء، بينما قلبه يطرق بعنف وكأنه يريد أن يخرج من الصدغين، وكما تنبت نرجسة في كعب صخرة، تقتق التراب عن أفين، لتقف بكامل عدتها ورهافتها قرب رأس شاهو، الذي بدا الآن ساجداً عند قدميها.

تغلغلت أصابعها في شعره، ونزت جراحها دماً قانئاً، كأنها جُرحت توّاً، قطرات الدم التي تساقطت على الثلج كانت تشعل حرائق صغيرة تتطفئ بنشيش..

-ها أنت آتٍ إليَّ أيها الحبيب، تعبر البرزخ الضيق بين الموت والحياة لتلتحق بي، فانهض إلى صدري... شاهو، شاهو، أيها الزوج الاثيري، خذني بين ذراعيك القويتين، أكون لك خمير خبزٍ، فلتشرب هذا الرحيق المخبأ لك في شفتي..

شاهو، ينتفض مرتعداً في موجات متزايدة، وروحه المنسحقة في البرد تتسلل بقسوة من مساماته المحترقة، وكلماته تتصاعد بهدوء كالدخان:

-أفين، أفين، موتي بك يحفظ نفسك لي-جئتك جئتك، ياحبيبتي، أطلقي خصلات شعرك القصير للريح في جهاتها الأربع، انهضي معي إلى السماء، ولتنزعي قيودك وأوتادك، ولتتكسّر كل مصاريع الأبواب المغلقة بيننا، ولتشرعي النوافذ على آخرها، وللحلم دربه أيضاً، وللحرية لون جراحك الحمراء.. والرابية البيضاء تلك-حيث ترقدين أيتها الملكة آسرة الكون...

طلع الفجر أغبشاً، وكان ثمة رتل من الأنصار يترك آثار أقدامه على بياض الثلج، وشجرة الجوز الوحيدة على التل تمد أغصانها حاضنةً فتيً مطوياً على قبر محروث بالأظافر والأصابع المتقرحة المتساقطة في التراب وأحجار مهملة تشير إلى كل الجهات،... وثمّة قطرات دماء قد فتحت آباراً صغيرةً في نقاوة الثلج...

وعندما جاء الصباح أخيراً، كان كل شيء قد تجمّد ثانية، بعد أن دفن الأنصار رفيقهم في ذات القبر، إلى جوار حبيبته، وأطلقوا في الفضاء الأزرق طلقات بنادقهم التي ماتزال تزأر في سماء كرد **Bê** ستان[15].. وعندما غادروا لم يعرفوا أن وريقات عشبة خضراء قد بدأت تفتح التراب والثلج لتخرج إلى الشمس، وأن حجلاً مقوقئاً كان يطلق صفيره وينقر، كان لاشيء هناك، سوى الحياة البهيجة المشرقة في أوائل أشعة الشمس الصفراء... وقد بدأت تتسلل من بين أوراق الجوزة، كما فعلت ذلك منذ القدم، وستفعله إلى الأبد.

ولم يبقى إلا الأيام تمرّ كما ستبقى تمرّ...

من الأمس إلى اليوم ومن اليوم إلى الغد.

تمت

E-Pirtûk www.kurdme.com www.all-kurd.com www.kurdefrin.com

[15] كرد Bê ستان: أكراد بلا وطن.

اشكر كل من ساهم في إنجاز هذا العمل ....

وأخص بالذكر أحمد عبد الكريم ونوس

جان بابير